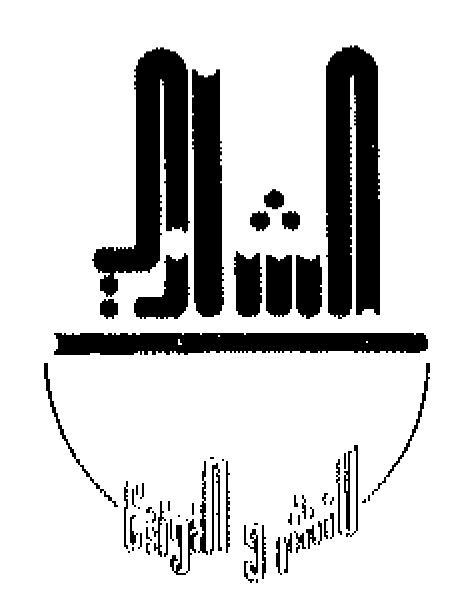
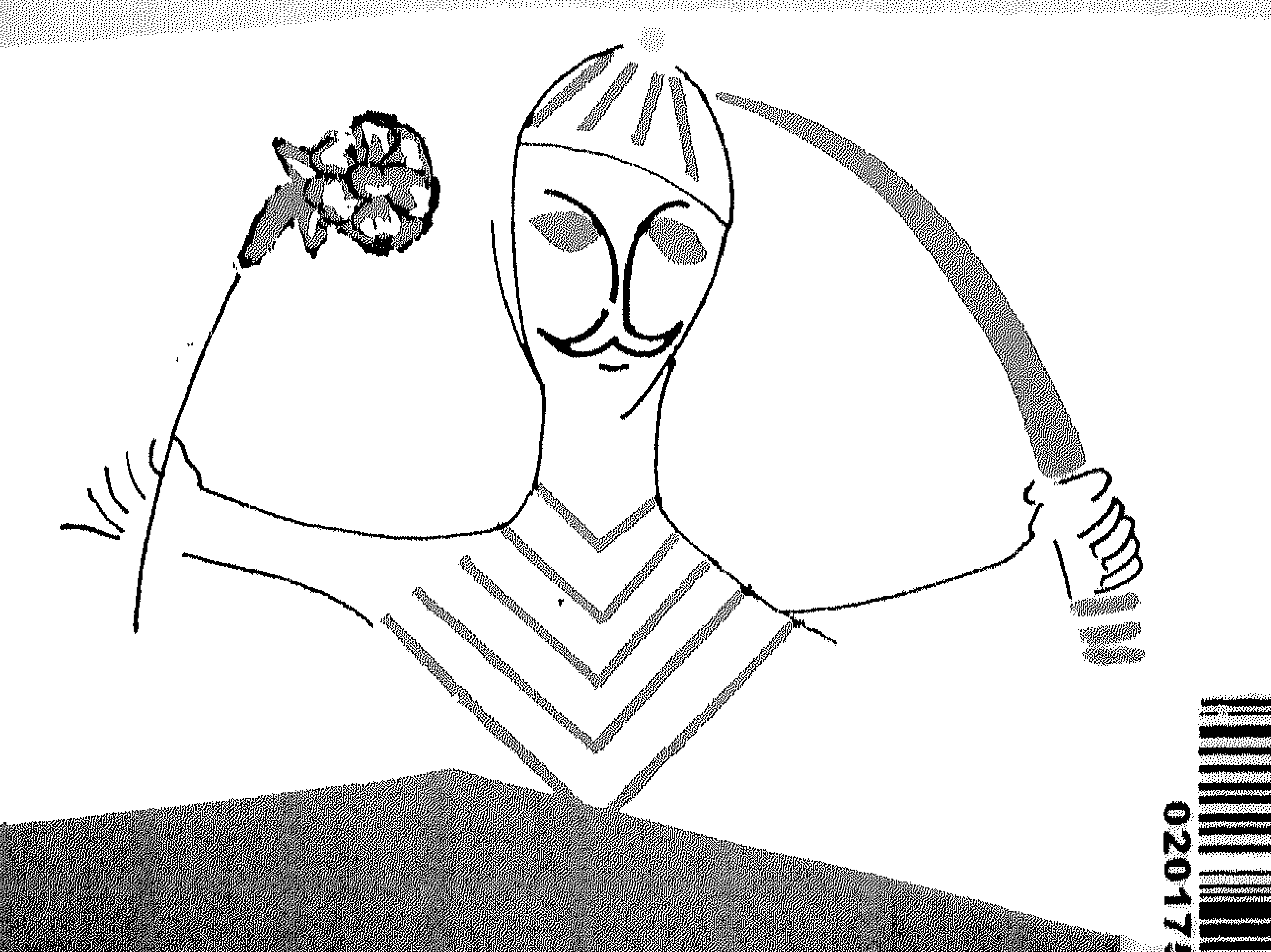
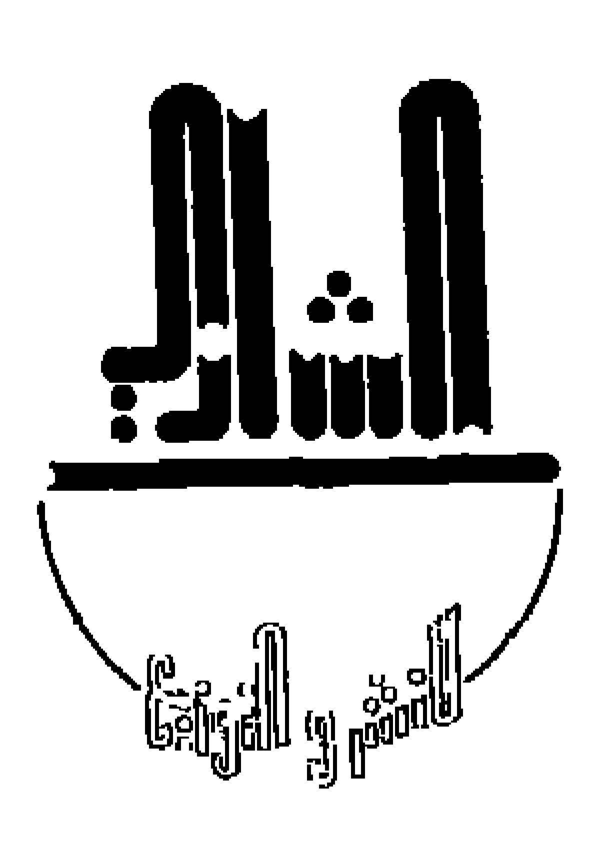


إلفة الإدلبي

نظرة في أدبنا الشعبي

ألف ليلة وليلة وسيرة الملك سيف بن ذي يزن





الجمهورية العربية السورية ــــ دمشق
شارع خالد بن الوليد ــــ جادة الذهبي
هاتف ٢١٦٥٣٩ ــــ ص.ب ٧٨٣٠ تلكس sy ٤١١١٣٩

الطبعة الثانية ١٩٩٢ م
الطبعة الأولى ١٩٧٤ م

ألف ليلة وليلة

و

سيرة الملك

سيف بن ذي يزن

ألفة الإدلبي

نظرة في أدبنا الشعبي

ألف ليلة وليلة وسيرة الملك سيف بن ذي يزن

تصميم الغلاف : الفنان غياث الأخرس

الإهداء

إلى صغيريَّ الغاليَين

عمر وكريم

ذكرى من جدتهما ألفة

١٩٧٤/٤/٢٠

كتاب ألف ليلة وليلة

لما كانت أهمية أي أثر أدبي تقيم بمدى قدرته على الصمود أمام الزمن ، وبسعة انتشاره على الصعيد العالمي ، ثم بمدى تأثيره على الآداب الأخرى ، كان كتاب « ألف ليلة وليلة » أكثر تراثنا الأدبي الشعبي قيمة وأهمية . فقد ترجم هذا الكتاب إلى أكثر لغات العالم . واستطاع أن يصمد دون أن تبلى جدته ستة قرون ونيف ، هذا إذا اعتبرنا عمره منذ جمع ، بينما عمر بعض حكاياته يذهب إلى أبعد من ذلك بكثير جداً . ولعله باق على الدهر .

ظل هذا الكتاب الأدبي العجيب خلال هذه المدة الطويلة يلهم ، ويعلم ، ويظفر بإعجاب نوابغ الأدباء والفنانين في الشرق والغرب إلى يومنا هذا . وكلما أوغل في دراسته ، واستنباط كنوزه ظهرت فيه امكانات لا تعد ولا تحصى . فهو ينطوي على فن قصصي جميل ، وخيال مجنح جامح متناولاً الطبع الإنساني بما فيه من خير وشر مما جعله مادة خصبة للإستلهام . فقد استلهمت منه قطع رائعة للمسرح ، والباليه ،

والموسيقا ، وقصص للسينما ، ولوحات وتماثيل ، وحكايات للأطفال . كما استنبطت من حكاياته قصص اتخذت أبطالها رموزاً لآراء فلسفية ، فإذا ما كنا نلمسه في الكتاب من سطحية وهزل ينقلب عمقاً وجداً .

ولعل أروع ما كتب في أدبنا الرمزي الحديث هو ما استلهم من كتاب « ألف ليلة وليلة » ككتاب « أحلام شهرزاد » ــ للدكتور طه حسين . ويعتبر هذا الكتاب من طلائع أدبنا الرمزي الثوري بالنسبة للفترة التي ظهر فيها . ومسرحية « شهرزاد » لتوفيق الحكيم التي ترجمت إلى عدة لغات أجنبية ، ومثلت على عدة مسارح في أوروبا ومسرحية « شهرزاد » للأستاذ علي باكثير و « المدينة المسحورة » للأستاذ سيد قطب و « القصر المسحور » للدكتور طه حسين والأستاذ توفيق الحكيم و« رحلات السندباد » للشاعر خليل حاوي ومسرحية « شهريار » للدكتور عمر النص . ولكثيرين غير هؤلاء .

وإننا لنلمس مدى افتتان الأوروبيين بهذا الكتاب من آراء أدبائهم فيه .

تمنى الأديب الفرنسي (ستندال) أن يمحو الله من ذاكرته حكايات الليالي كي يعيد قراءتها فيستعيد لذته .

ووضعه (أناتول فرانس) ضمن أوائل الكتب الأدبية التي تتلمذ عليها قبل أن يكتب الأدب .

وقال عنه (فولتير) أنه لم يزاول كتابة القصص الأدبية إلا بعد أن قرأ « ألف ليلة وليلة » أربع عشرة مرة .

تقول الدكتورة (سهير القلماوي) في كتابها « ألف ليلة وليلة » ويعتبر من أهم الدراسات في اللغة العربية عن هذا الأثر النفيس :

« لسنا نبالغ إذا قلنا أن كتاب « ألف ليلة وليلة » كان الحافز الأهم لعناية الغرب بالشرق عناية تتعدى النواحي الإستعمارية ، والتجارية ، والسياسية . بل لسنا نغالي إذا أرجعنا كثيراً من قوة حركة الإستشراق وانتشارها إلى ما ترك هذه الأثر في نفوس الغربيين .

في الواقع لم يحظ كتاب « ألف ليلة وليلة » بالدراسات الوافية وبالتمحيص والبحث والتنقيب من قبل النقاد العرب ، ولا بالاستلهام والاقتباس من قبل أدبائهم كما هو جدير به أن يحظى ، أو كما حظي عند الغربيين على الأقل .

يقول الأديب الكبير (أحمد حسن الزيات) في دراسة له عن « ألف ليلة وليلة » : « إن هذا الكتاب يصور الزهد بالدنيا والتعفف والاعتدال ، كما يصور الجري وراء اللذات الخسيسة ، والمكاسب الدنيئة . يعنى بالملوك والأمراء وعلية القوم من الحكام ، والطبقة البرجوازية ، كما يعنى بالصعاليك ، والفقراء ، والخدم » .

وقد أعجبني مقطع صغير منه يصور النقمة الأزلية في نفوس الفقراء والكادحين على واقعهم المر . أورده الأستاذ الزيات هكذا :

وينهك الحمل الحمَّال فيلقي به على مصطبة أمام بيت من بيوت التجار يتردد إليه النسيم الرطيب ، وتضوع منه روائح العطر والطيب ثم يرى الحمال عظمة ذلك التاجر من كثرة خدمه وغلمانه ، ويسمع البلابل

والفواخت تغرد في بستانه ، ويصغي إلى رنين أوتاره ، وغناء قيانه ، وينشق أفاويه الطعام الشهي من صحافه وألوانه ، فيرفع طرفه الحائر إلى السماء ويقول :

ــ سبحانك يارب !... لا اعتراض على حكمك !... ولا معقب على أمرك !.. أين حالي من حال هذا التاجر ؟؟

أنا مثله وهو مثلي ، ولكن حمله غير حملي!....

وهكذا نرى الكتاب كما يصف الفقر يصف الغنى . ولعل أروع ما فيه هو هذا الشمول العجيب ، فهو يسبر غور النفس الإنسانية بيسر ويصف ما فيها من خير وشر ، وتتمثل فيه جميع المبادىء والنحل ولذا يجد فيه كل قارىء غايته .

أصل الكتاب

اتفقت آراء دارسي كتاب ألف ليلة وليلة من شرقيين وغربيين على أن أصل حكاياته هندية ، ثم ترجمت إلى اللغة الفارسية ، وأضيفت إليها حكايات فارسية جمعت مع الأصل الهندي في كتاب أطلق عليه اسم (هزار أفسانه) أي ألف خرافة . ثم ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، وأضيفت إليه أيضاً على توالي الأيام قصص عربية ألفها قصاصون عرب من بغداد ومصر والشام ، كما نقلت إليه بعض النوادر والقصص من كتب الأدب العربي ، وبخاصة أدب الرحلات ، حتى استوى الكتاب بالشكل الذي بين أيدينا الآن بعد أن طرأ عليه كثير من التحوير والتبديل .

لم يعرف اسم المترجم العربي للكتاب ، كما فقد الأصل الفارسي أي (هزار أفسانه) مما أدى إلى بلبلة في دراسة الكتاب .

لجأ بعض دارسيه إلى الظن والتخمين ، وترجيح الأقرب إلى الصواب ، كل حسب اجتهاده ، وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فراح يدرس كل حكاية على حدة ثم يرجعها إلى أصلها معتمداً على دراسة

الأساطير والحكايات الخرافية والشعبية والدينية ، والفولكلور عند مختلف الشعوب .

إن هذا كله في اعتقادنا لا يعصم عن الوقوع في الخطأ ، ولذا ظل باب الدراسة مفتوحاً أمام دارسين جدد للوصول إلى حقائق راهنة لا يتطرق إليها الشك .

لم يحفل الأدباء العرب القدامى بهذا الكتاب فلم يرد ذكره في كتب الأدب العربي القديم إلا لماما .

كان أول من أشار إليه المسعودي المتوفى سنة ٩٠٧ م في كتابه « مروج الذهب » فقال عنه في معرض حديثه عن الخرافات والقصص الموضوعة :

(مثل كتاب (هزار أفسانه) وتفسير ذلك بالفارسية ألف خرافة ، واسم الخرافة بالفارسية (أفسانه) والناس يسمون هذا الكتاب (ألف ليلة) وهو خبر الملك والوزير وجاريتيهما شهرزاد ودنيازاد) .

كما جاء ذكره في موضعين من كتاب الفهرست لابن النديم المتوفى في ٩٩٥ م ، حيث قال عنه :

(أول من صنف الخرافات وجعل لها كتباً وأودعها الخزائن الفرس الأول ، ثم أغرق في ذلك ملوك الأشفانة وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ، ونقلته العرب إلى اللغة العربية ، وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه وصنفوا في معناه ما يشبهه ، فأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب (هزار أفسانه) ومعناه ألف خرافة .
وكان السبب في ذلك أن ملكاً من ملوكهم كان إذا تزوج إمرأة وبات

معها ليلة قتلها في الغد . فتزوج بجارية من أولاد الملوك لها عقل ودراية يقال لها (شهرزاد) فلما حصلت معه بدأت تخرفه ، وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ، ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى أن أتى عليها ألف ليلة ... رزقت في أثنائها منه ولداً أظهرته وأوقفت الملك على حياتها عليه ، فاستعقلها ، ومال إليها واستبقاها . وكان للملك قهرمانة يقال لها (دنيازاد) فكانت موافقة لها على ذلك .

وفي موضع آخر من كتاب (الفهرست) قال ابن النديم :

(والصحيح إن شاء الله أن أول من سمر بالليل الإسكندر .وكان له قوم يضحكونه ويخرفونه لا يريد بذلك اللذة ، وإنما كان يريد الحفظ والحرس ، واستعمل لذلك بعده الملوك (هزار أفسانه) ويحتوي على ألف ليلة ، وعلى دون المائتي سمر ، لأن السمر ربما حدث في عدة ليال . وقد رأيته بتمامه دفعات . وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث) .

كذلك ذكر كتاب « ألف ليلة وليلة » في كتاب (الخطط) للمقريزي المتوفى عام ١٤٤٢ م ، فقال عن لسان مؤرخ مصري مجهول اسمه (القرطي) : (حتى صارت رواياتهم في هذا الشأن كأحاديث البطال وألف ليلة وليلة ما أشبه ذلك) .

فالقرطي هذا كان أول من أطلق على الكتاب اسم (ألف ليلة وليلة) وقبله كان يسمى (ألف ليلة) فقط .

وذكر أيضاً ألف ليلة وليلة في كتاب (نفح الطيب) للمقري المتوفى عام ١٦٣١ م عن لسان المؤرخ المصري (القرطي) .

عدا هذه المصادر الآنفة لم يعثر دارسو الكتاب عن ذكر له في تراثنا الأدبي القديم .

غير أن دراسة حديثة ظهرت عن ألف ليلة وليلة للأديب العراقي (هلال ناجي) . وقد قرأت عن هذه الدراسة في الملحق الثقافي لصحيفة (العلم) التي تصدر في الرباط في العدد ٢٠٥ الصادر في ٢٧ تموز عام ١٩٧٣ « يؤكد الأستاذ هلال ناجي أنه عثر على مخطوط في مكتبة الفاتح في اسطنبول وإن من بين أبرز الحقائق التي يكشفها هذا المخطوط هو إزاحته الستار لأول مرة عن التاريخ الذي ترجمت فيه ألف ليلة وليلة إلى العربية ، واسم مترجمها الذي قال المؤلف أنه الكاتب العربي القديم (عبد الله ابن المقفع) وذلك في سنة ١٤٢هـ » .

لايستبعد أبداً أن يترجم ابن المقفع كتاب « هزار أفسانه » إلى العربية وهو شغوف كما نعلم بترجمة القصص فقد سبق له أن ترجم كتاب (كليلة ودمنة) الذي هو قصص عن لسان الحيوان .

ولكن الذي لا نشك فيه أبداً هو أن ترجمة ابن المقفع قد فقدت فيما فقد من تراثنا الأدبي . لأن كتاب ألف ليلة وليلة المأخوذ عن نسخة بولاق والذي اعتمده دارسو الكتاب ذو أسلوب ركيك ، كثير التكرار والسجع ـــ كالأساليب التي عرفت في عهد الانحطاط ـــ أي لا تمت بصلة إلى أسلوب ابن المقفع الرصين الرفيع . ربما تناقل الناس بالتواتر الحكايات التي ترجمها ابن المقفع عن الفارسية ـــ بعد أن فقد الكتاب ـــ والحكايات كما نعلم تعيش بالتواتر أزماناً طويلةً ولكن يطرأ عليها خلال ذلك كثير من التحريف ، ثم جاء قصاصون أعادوا كتابة هذه الحكايات بأساليبهم المختلفة

ثم قيض لهذه الحكايات من جمعها في كتاب واحد قد يكون هو الكتاب الذي رآه ابن النديم على دفعات وقال عنه إنه بارد غث الحديث .

ولعله من الطريف أن نذكر ما أورده الشاعر الأديب شفيق معلوف في كتابه (حبات زمرد) في دراسة عن ألف ليلة وليلة كان قد كتبها مقدمة لترجمة برتغالية للكتاب ، قام بها الأخوان البرازيليان (سيسيلو وجورج كانيرو) :

« كتب (جورج كانيرو) في جريدة (غازيتا الكبرى) التي تصدر في (سان باولو) أنه حينما كان سنة ١٩٥٣ في مصر التقى في القاهرة عالماً أثرياً يدعى (يوسف بن غصن) حدثه عن عثوره في أحد مدافن البصرة على قبرية قديمة العهد كتب عليها ما ترجمته :

في ذمة الله الرحمن الرحيم
إبنتي شمس النهار
شمس أيامي وقمر ليالي
الحب قتلك وأنا أحييتك
في حكايتك التي رويتها لأبناء البحار
بركات الله عليك وعلى أبيك

سلام بن عصفور

ويروي (كانيرو) أن (ابن غصن) أفاده أن هذا الاكتشاف قاده إلى الاعتقاد بأن مؤلف ألف ليلة وليلة هو هذا الوالد الثاكل ، وإن أبحاثه دلت على أن الرجل عاش في سنة الألف للميلاد ، وأنه بحار من أبناء البصرة ، وأنه السندباد نفسه ، وقد عاش رحلاته وزخرفها تحت تأثير

الحشيش ، ورواها للبحارة في مختلف البلدان والشعوب ودونوها في مصر ، وفارس ، وتركستان ، وكان هذا داعياً لاختلاف الأساليب في تدوينها .

ثم يقول شفيق معلوف :
(يا حبذا لو نشر الأديب المصري دراسته تلك ليستطيع المحققون ابداء رأيهم فيها على ضوء منطق الحوادث وفلسفة التاريخ) .

أما إذا رجعنا إلى قصة (شمس النهار وعلي بن بكار) في كتاب ألف ليلة وليلة لوجدنا شمس النهار تموت حباً ... مما يجعلنا نتساءل هل بطلة القصة هي نفسها التي رثاها أبوها سلام بن عصفور وكتب على شاهدة قبرها :

الحب قتلك ، وأنا أحييتك في حكايتك التي رويتها لأبناء البحار .
من يدري قد تكون هي نفسها ، وقد يأتي محققون جدد يكتشفون في تراثنا الأدبي المبعثر في كثير من مكتبات العالم ، والذي لم يحقق بعد ، أشياء عن هذا الكتاب لم تكن بالحسبان . مثال على ذلك :

ورد في الملحق الثقافي لجريدة العلم التي تصدر في الرباط أن الدكتورة اللبنانية (نبيهة عواد) قد عثرت على قطعة صغيرة من ألف ليلة وليلة بين أوراق البردي العربية التي اقتناها المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو ، ترقى هذه القطعة إلى المائة التاسعة للميلاد ، وقد تكون أقدم ما انتهى إلينا من هذا الكتاب الذي مايزال منذ أكثر من سبعة قرون مثار اهتمام بعيد على الصعيد العالمي .

جمع حكايات الكتاب

يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات في دراسة له عن ألف ليلة وليلة أن حكايات الكتاب جمعت مابين عامي ١٥١٧ ـــ ١٥٢٦ م .
وحجته في ذلك أنه ورد في الكتاب ذكر القهوة ، والباب العالي وبعض النظم العثمانية مما لم يعرف قبل تلك السنة ، ولا القهوة انتشرت في الشرق قبل ذلك التاريخ .

لم يعرف جامع الكتاب ، ولا مؤلفو قصصه ، ولا مترجمه أو مترجموه إلى اللغة العربية على الرغم من الدراسات الكثيرة التي قام بها محققون شرقيون وغربيون حول الكتاب . وليس هذا بمستغرب ، إنه شأن أكثر مؤلفي الآداب والفنون الشعبية التي تصادف هوى في نفوس العامة فيشغلون بها عن مؤلفيها ويظل هؤلاء جنوداً مجهولين في دنيا الأدب .

ترجمة الكتاب إلى اللغات الأجنبية

كان أول من ترجم كتاب ألف ليلة وليلة إلى لغة أجنبية هو العالم الفرنسي المستشرق (أنطوان غالان) . بدأ عام ١٧٠٤ بترجمة سبع قصص أهداها إلى المركيزة (دو) الوصيفة في قصر دوقة (بورغونيا) ونالت هذه القصص نجاحاً مرموقاً في القصر مما شجع (غولان) على ترجمة الكتاب كله . فجلبه من سورية ونقله إلى الفرنسية بأسلوب أدبي جميل بعد أن نقحه من البذاءة والتكرار الممل والقصائد التي لا محل لها ، كما حذف وأضاف وغيَّر في كثير من الحكايات مما جعل بعض النقاد يعيبون على (غالان) تصرفه هذا ، وعدم أمانته في الترجمة ، وبعضهم ينسب إليه نجاح الكتاب العظيم وشهرته الواسعة في الغرب . لأن (غالان) كان أديباً موهوباً بفن القص فصاغ الحكايات بأسلوب قصصي بارع يلائم ذوق أهل عصره .

ثم أهدى الكتاب إلى المركيزة (دو) أيضاً ، وكتب لها في الاهداء يقول : « ... ومدفوعاً بالثقة بك يا سيدتي أتجرأ وأطلب منك لهذا الكتاب

نفس الرعاية التي أحطت بها ترجمتي للحكايات السبع ، والتي كان لي شرف تقديمها إليك » .

يبدو أن المركيزة كانت خير داعية للكتاب كما قدر (غالان) فقرأه سكان القصور ، ورجال البرلمان ، والبرجوازيون ، والرعاع ، وجميع من كان يعرف القراءة آنذاك ، فراج رواجاً منقطع النظير حتى كتب الناقد الفرنسي (جول جانان) عن (غالان) يقول :

(لقد كانت ليلة شتائية ... وقد أغلق العالم النزيه كتابه ، وأطفأ مصباحه ، واستسلم إلى اغفاءة هادئة تريح النفس والجسد . لقد نام (غالان) برفق ولين يتأرجح بين أحلام ألف ليلة وليلة الجميلة التي وهبها للعالم الغربي . وفجأة يهب من نومه على أصوات عديدة وحزينة تصيح تحت نوافذه :

ـــ السيد غالان ، السيد غالان !

لماذا هي حزينة أصوات هؤلاء الشباب ؟

أولى بها أن تكون فرحة ... بهجة وضاحكة .

ويفتح (غالان) نافذته ، ويمد رأسه مغطاة بطاقية نوم ويقول :

ـــ ما بكم ؟؟... ماذا تريدون مني ؟

ويجيبه أحدهم :

ـــ إذا لم تكن نائماً قص علينا حكاية من هذه الحكايات الرائعة التي تجيد أنت وحدك سردها .

ويقول الناقد :

ــ وهكذا تولد في شوارع باريس ليلة جديدة من ليالي ألف ليلة وليلة لتصبح ألف ليلة وليلتين) .

بهذه الحماسة النادرة تلقى المجتمع الباريسي أول ترجمة لكتاب ألف ليلة وليلة . وتعم بعد ذلك شهرة الكتاب بلاد أوروبا كلها فيترجم إلى لغات كثيرة عن ترجمة (غالان) التي ظلت قرناً ونيف المصدر الوحيد للكتاب في الغرب .

ثم يأتي مستشرقون من إنكلترا ، وألمانيا ، والدانمرك ، وايطاليا ، يعودون إلى أصول الكتاب العربية ، ويتبارون في الحصول على النسخ ويترجمونها إلى لغاتهم . وكانت النسخ تختلف عن بعضها كثيراً حتى جاء المستشرق الفرنسي (زوتبرغ) وأقر نسخة من ألف ليلة وليلة طبعت في بولاق عام ١٨٣٥ وقد وافقه عليها أكثر محققي الكتاب .

ثم جاء الدكتور (ماردروس) المولود في سورية وترجم نسخة بولاق هذه إلى اللغة الفرنسية بحذافيرها ، بما فيها من بذاءة وفحش وتكرار وحشو وشعر .

وقد وضع المستشرق (نيكيتا اليسييف) دراسة استغرقت مجلداً كاملاً يدل الباحثين على عناوين الطبعات والترجمات التي صدرت حول الكتاب والاقتباسات منذ قرنين ونيف ، أي منذ ترجمة (غالان) حتى الخمسينات من هذا القرن . فأين اهتمامنا نحن أصحاب الكتاب ، من اهتمام الغربيين به !...

محاسن الكتاب

الإبداع في الخلق :

لا يكفي أن يخلق الأديب عملاً أدبياً لم يسبقه إليه أحد ، المهم هو درجة إبداعه في هذا العمل . فالإبداع في الخلق هو مقياس العبقريات الأدبية ، ولذا كان أهم ما يميز كتاب ألف ليلة وليلة هو الإبداع في خلق قصصه ، الإبداع في خلق الأجواء ، وتنوعها ، وزخرفتها بما يبهرنا ويجعلنا نتساءل أية عبقرية خلاقة تلك التي أبدعت قصة شهريار وأخيه شاه زمان ، وشخصية شهرزاد الرائعة ، وقصة الصياد والعفريت وما فيها من عوالم السحر والجان . وسفرات السندباد وما حوته من غرائب وعجائب البراري والبحار . وقصة قمر الزمان ابن الملك شهرمان . و و و ...

ولعل أكثر ما يتجلى هذا الإبداع ، يتجلى في مقدمات بعض القصص ، أي عندما يمهد القاص للقصة فيأتي هذا التمهيد أروع من القصة ذاتها . وكمثال على ذلك أحب أن ألخص مقدمة قصة قمر الزمان

ومعشوقته السيدة بدور متوخية من هذا التلخيص التقيد بأسلوب الكتاب قدر الإمكان لأعطي القارىء صورة عنه .

أراد القاص أن يكتب حكاية حب تقع بين حبيبين رأيا بعضهما في لحظة خاطفة فوقع كل منهما في حب الآخر ثم افترقا دون أن يعرف أحدهما عن الآخر شيئاً ، فراحا يسعيان إلى اللقاء بعد أن برَّح بهما الوجد فما يلتقيان إلا بعد أن تعترضهما مصاعب يتفنن القاص في تعقيدها لتشويق القارىء .

غضب الملك شهرمان على ابنه قمر الزمان لعزوفه عن الزواج . فأمر أبوه أن يسجن في برج مهجور حتى ينصاع لإرادة أبيه . وكانت تسكن في بئر أسفل البرج الجنية ميمونة ابنة الملك الدمرياط . فرأت نور البرج مولعاً على غير عادته فتعجبت من ذلك وصعدت إلى البرج ودخلت القاعة ، فرأت سريراً منصوباً وعليه هيئة إنسان نائم ، وشمعة مضيئة عند رأسه ، وفانوساً مضيئاً عند رجليه ، فتقدمت إليه قليلاً قليلاً ، وأرخت أجنحتها ، وكشفت الملاءة عن وجهه ، ونظرت إليه ، واستمرت باهتة في حسنه وجماله ساعة زمانية ، فقد وجدت نور وجهه غالباً على نور الشمعة ، وقد احمر خداه ، وفتر جفناه ، وتقوس حاجباه ، وفاح مسكه العاطر ، فسبَّحت الجنية الله وقالت : تبارك أحسن الخالقين ، وقالت في نفسها : والله إني لا أضره ، ولا أترك أحداً يؤذيه ، ومن كل سوء أفديه ، فإن هذا الوجه المليح لا يستحق إلا النظر إليه والتسبيح . ثم مالت عليه وقبلته بين عينيه ، وأرخت الملاءة على وجهه ، وغطته بها. . ثم فتحت أجنحتها وطارت في السماء ، فإذا هي تسمع خفق أجنحة قادمة من بعيد فلما قربت من صاحبها وجدته عفريتاً اسمه دهنش ،فانقضت عليه

انقضاض الباشق وقالت له : والله لا أعتقك حتى تخبرني من أين مجيئك في مثل هذه الساعة من الليل ؟

فقال لها يا سيدتي جئت من بلاد الملك الغيور صاحب الجزائر والبحور ، والسبعة قصور ، فرأيت لذلك الملك بنتاً لم يخلق الله في زمانها أحسن منها ، ويعجز لساني عن وصفها كما ينبغي ، ولكن أذكر لك شيئاً من صفاتها على سبيل التقريب . أما شعرها فكليالي الهجر ، وأما وجهها فكأيام الوصال ، ثم راح يسهب في وصف محاسنها إلى أن قال : أنا ياسيدتي أتوجه إليها في كل ليلة فأنظرها وأتملى من وجهها وأقبلها بين عينيها وهي نائمة .

فضحكت منه ميمونة وقالت له :

ـــ يا ملعون يا أنحس المردة ، أين معشوقتك هذه من معشوقي قمر الزمان الذي لا مثيل له في هذه الديار ؟؟

فقال لها :

ـــ إن معشوقتي لا شك أجمل ، فبالله عليك يا سيدتي أن تأتي معي وتنظري إليها ، وتحكمي بنفسك .

فقالت له :

ـــ ويلك ! أنا لا أذهب إليها ، وإنما تذهب أنت وتأتي بها وهي نائمة وتضعها إلى جانب قمر الزمان وننظر إليهما فمن كان صاحبه أجمل فاز بالرهان .

قال دهنش :

ـــ أنا قبلت يا سيدتي بالشرط .

ثم يفرد جناحيه ويطير من فوره . وما يغيب إلا قليلاً حتى يجيء

بالست بدور ويضعها على السرير إلى جانب قمر الزمان ثم يقول :

ــ سبحان الله يا سيدتي كأنهما توأمان . إلا أن معشوقتي أجمل ...

فقالت له ميمونة :

ــ كذبت وخسئت بل معشوقي أجمل ...

قال دهنش :

ــ لن نتفق يا سيدتي أبداً ، والأحسن أن نأتي بمن يفصل بيننا بالانصاف .

قالت ميمونة :

ــ وهو كذلك . ثم ضربت الأرض برجلها فطلع لها عفريت شنيع الشكل ، قبل الأرض بين يديها ثم قال لها :

ــ ما حاجتك يا سيدتي ؟

قالت له :

ــ أريد ياقشقش أن تحكم بيني وبين هذا الملعون دهنش .

ثم حكت له القصة . فعندها نظر العفريت إلى الصبي والصبية فرآهما متعانقين وهما نائمان ، ومعصم كل واحد منهما تحت عنق الآخر وهما في الحسن والجمال متشابهان وفي الملاحة متساويان .

فقال قشقش :

ــ والله ما فيهما أحد أحسن من الآخر ولا دونه . وعندي حكم آخر وهو أن ننبه كل واحد منهما من غير علم الآخر ، وكل من التهب على رفيقه فهو دونه في الحسن والجمال .

فقالت ميمونة :

ـــ هذا هو الرأي الصواب .
وقال دهنش : وأنا رضيته أيضاً .

فعند ذلك انقلب دهنش إلى برغوث ولدغ قمر الزمان في عنقه فاستيقظ ونظر إلى جانبه فرأى صبية بارعة الجمال والقد والاعتدال فأخذ بها فصار ينبهها وهي لاتنتبه ، لأن دهنش ثقل نومها .

فقال قمر الزمان في نفسه : لا بد أن هذه الصبية هي التي يريد أبي أن يزوجني بها ، وأنا أرفض ذلك منذ ثلاث سنوات فجاء بها أبي إلى جانبي ليوقعني بحبها ، فوالله لو عرفتها من قبل لما ترددت في زواجها قط .

وتراوده نفسه أن يقبلها فيميل عليها ، وترتعد الجنية ميمونة خشية أن تخسر الرهان ، لكن قمر الزمان تمالك نفسه ، فقد خاف أن يكون أبوه مستخفياً في مكان يراه منه ، فارتد عن الصبية ، واكتفى بأن يأخذ خاتمها ويضعه في إصبعه ، ويضع خاتمه في إصبعها ليكون الخاتمان إشارة بينهما .

ويرخي دهنش النوم على قمر الزمان فيغرق فيه ، وعندها تنقلب ميمونة إلى برغوث وتتغلغل في ثياب الست بدور وتلدغها في سرتها فتصحو من نومها ، وتنظر إلى جانبها فترى شاباً رائع الجمال ، فتقول : وافضيحتاه !... من هذا الشاب الغريب النائم معي في فراش واحد ؟

ثم تنظر إليه ، وتحقق فيه النظر ، وفي ظرفه ودلاله ، وحسنه وجماله ، فيأخذها الهيام ، والوجد والغرام ، وتقول في نفسها :

لو علمت أن هذا الشاب هو الذي خطبني من أبي لما رددته قط ، بل كنت أتزوجه وأتملى بجماله ، ثم حركته بيدها ، فأرخت عليه الجنية

النوم وثقلت رأسه . ثم أخذت الست بدور تناجيه ، وتغازله وتغريه ، وهو مستغرق في نومه ، ثم رفعت يده لتقبلها فرأت خاتمها في خنصره فشهقت شهقة أتبعتها بغنجة وقالت :

ـــ أوه ... أوه ... أنت تحبني ، ولكنك تعرض عني دلالاً . ثم عانقته وقبلته في ثغره . ففرحت الجنية ميمونة ، وقالت لدهنش :

ـــ أرأيت يا ملعون كيف تدلهت معشوقتك ، وعف معشوقي ؟ لأنه هو الأجمل . لقد ربحت أنا الرهان ، ولكني عفوت عنك فهيا أرخ على صاحبتك النوم ، وعد بها إلى قصر أبيها فقد أوشك الليل أن ينقضي ، ودعني وحدي أتملى من معشوقي .

لقد أمسك القاص بخيوط القصة بعد أن مهد لها بهذه المقدمة الجميلة فما عليه الآن إلا أن يحرك الخيوط . وما أسهل أن يبتكر الصعاب ، ويخلق العقبات أمام العاشقين المدلهين اللذين لا يعرفان عن بعضهما شيئاً ، فما يجمعهما إلا بعد جهد كبير .

إن مقدمة قصة الملك شهريار وأخيه شاه زمان لا تقل روعة عن مقدمة قصة قمر الزمان هذه ، ولكن التلخيص يسيء دائماًإلى القصة فأتركها للقارىء ليكتشف جمالها بنفسه ، وجمال أمثالها في الكتاب .

بعد المقدمات الخيالية الرائعة تأتي القصص واقعية ، معبرة أصدق تعبير عن الطبع الإنساني بما فيه من خير وشر ، مما يجعل القصة بكاملها متعة للأذهان وعبرة للنفوس .

إن هذا الإبداع في الخلق من معقول ، ولا معقول ، جعل لألف

ليلة وليلة هذه القيمة الأدبية الكبيرة ، والشهرة الواسعة حتى عد بين العشرة الكتب الأولى في عالم الأدب .

قيمة الكتاب الوثائقية :

يقول الأستاذ الألماني (فريدريش فون درلان) في كتابه (الحكاية الخرافية) :

« كلما توغل الإنسان في قراءة (ألف ليلة وليلة) ازداد إحساساً بأنفاس الروح العربي . فالطبيعة العربية تأسرنا حينئذ إلى درجة أننا نستسلم راغبين إليها وحدها عن طوعية ونفضل ألا نشعر بغيرها . فهي صورة واضحة للحياة العربية خلال ستة قرون » .

فالكتاب إذن قد تأقلم بالأجواء العربية الصرف . وأول ما ترجم إلى اللغة الإنكليزية ترجم باسم (ليالي عربية) .

وقد عثرت على كتاب باسم (المنتخب من ألف ليلة وليلة) وضعه المستشرقان الفرنسيان (هنري بريس) وكان أستاذاً في كلية الآداب في جامعة الجزائر ، والأستاذ (بول مانجيون) وكان أيضاً أستاذاً في المدرسة الثانوية في الجزائر .

جمع هذان الأستاذان لطلابهما نصوصاً للترجمة اختاراها من كتاب (ألف ليلة وليلة) . ولم يختاراها كيفما اتفق ، وإنما حرصاً على أن تمثل هذه المقاطع من الكتاب الحياة الإجتماعية العربية في العصور التي جمع فيها الكتاب . فأخذا منه كل ما يصور الأزياء والأثاث ، والعادات ، والتقاليد ، والمراسم في الولائم والأعراس ، والمآتم ، والأسواق ، والمحاكم .

وإليك أيها القارىء هذه النصوص لتتعرف على التقاليد والعادات العربية السائدة آنذاك .

هذا نص يصور لنا كيف كان التجار يبدأون يومهم في الأسواق :

« كان من عادة شهبندر التجار أنه حينما يأتي من بيته في الصباح ويقعد في دكانه ، يتقدم نقيب السوق ويقرأ الفاتحة للتجار فيقومون معه ، ويأتون إلى شهبندر التجار فيصبحون عليه ويقرأون له الفاتحة ثم ينصرف كل واحد إلى دكانه » .

يا له من تقليد جميل . كان يبدأ به التجار يومهم فيجعل بينهم مودة وألفة .

يتبين لنا من هذا النص أنه كان لكل سوق رئيس ونقيب يرجع إليهما التجار في حل مشكلاتهم .

وهذا نص آخر يصف لنا صيدلية أنيقة في دمشق :

أخذ الأعجمي دكاناً ، وملأ رفوفه بالصيني النفيس ، والأغطية ، وزركش الرفوف بالذهب والقطع المثمنة ، وحط قدامه أواني من القناني فيها سائر الأدهان ، وسائر الأشربة ، ووضع حول القناني أقداحاً من البلور ، وحط التخت والاصطرلاب قدامه . ولبس أثواب الحكمة والطب ، وأوقف بين يديه غلامه ــ نعمة ــ وألبسه قميصاً وملوطة من الحرير ، ومنطقه بفوطة في وسطه من الحرير المزركش بالذهب . ثم إن أهل دمشق اجتمعوا على دكان الأعجمي ينظرون إلى حسن الدكان ، والبضائع التي فيها .

يصور لنا هذا النص أنه كان في بلادنا في القرون الوسيطة صيدليات أنيقة لا تقل أناقة عن الصيدليات الحديثة في أرقى المدن في عصرنا هذا ، وإن الأطباء كانوا يلبسون ألبسة خاصة عند ممارستهم العمل .

وهذا نص طريف يصور لنا كيف كان ينادى على الجواري في سوق النخاسين :

مضى « علي نور الدين » وسلم « أنيس الجليس » إلى الدلال وقال له :

اعرف مقدار ما تنادي عليه .

فقال له الدلال :

ـــ يا سيدي « علي نور الدين » الأصول محفوظة .

ثم قال له :

أما هي « أنيس الجليس » التي كان اشتراها مني والدك المرحوم بعشرة آلاف دينار ؟

قال علي نور الدين :

ـــ نعم إنها هي !..

فعند ذلك نظر الدلال إلى التجار فوجدهم لم يجتمعوا كلهم ، فصبر حتى اجتمع سائر التجار ، وامتلأ السوق بسائر الجواري من تركية ، ورومية ، وشركسية ، وكرجية وحبشية .

فلما اطلع الدلال على ازدحام السوق نهض قائماً وقال :

يا تجار : يا أرباب السوق ! ما كل مدورة جوزة ، وما كل

مستطيلة موزة ، ولا كل بيضاء شحمة ، ولا كل حمراء لحمة ، ولا كل صهباء خمرة ، ولا كل سمراء تمرة .

يا تجار ! هذه الدرة اليتيمة ، التي لا تفي بها الأموال بقيمة ، بكم تفتحون باب الثمن ؟؟ .

ويقف واحد من التجار ويقول :

علي بأربعة آلاف دينار وخمسمائة .

وهذا نص آخر يصف لنا مأتماً نجده لا يختلف كثيراً عن مراسم المآتم في مجتمعنا العربي المعاصر .

قال العبد كافور :

لما سمع أولاد التاجر وزوجته خبر موته صرخوا ، وشقوا ثيابهم ، ولطموا على وجوههم ، فأتت إليهم الجيران ، وأما زوجة سيدي فإنها قلبت متاع البيت بعضه على بعض ، وخلعت رفوفه ، وكسرت طيقانه ، وشبابيكه ، وسخمت حيطانه بطين ونيلة وقالت :

ويلك يا كافور ، تعال ساعدني ، واخرب هذه الدواليب ، واكسر هذه الأواني الصيني . فجئت إليها وأخرجت معها رفوف البيت وأتلفت ما عليها ، ودواليبه وأتلفت ما فيها ، ودرت على السقوف ، وعلى كل محل حتى أخرجت الجميع وأنا أصيح :

واسيداه !...

هذه التقاليد ظلت سائدة إلى أمد قريب وعاه جيلنا . وبعض الأسر المحافظة في مجتمعنا الدمشقي ما زالت تمارس في مآتمها بعض هذه التقاليد إلى يومنا هذا . فالسجاد يقلب على قفاه يوم المأتم ، وترفع عن البيت

معالم الزينة كلها من صيني ، وأزهار ، ولوحات ، لكن دون أن تتلف . أما المرايا والثريات التي يصعب نقلها فتغطى بقماش أبيض أو أسود حسب الفاجعة التي حلت بالأسرة .

إن من يقرأ هذه النصوص وحدها يأخذ فكرة واضحة عن الحياة الإجتماعية العربية في القرون الوسيطة ، ويدرك إلى أي مدى تعمر التقاليد وتتحكم بالمجتمع .

إن ما نفتقده في كتبنا التاريخية الرصينة من اهتمام بحياة عامة الشعب ، نجده في كتاب ــ ألف ليلة وليلة ــ صوراً موارة بالحياة . ولذا كانت للكتاب قيمة وثائقية كبرى في تاريخنا الإجتماعي .

تقديس الحكاية

يقول الناقد (تزيفتان تودوروف) في دراسة حديثة له عن كتاب ألف ليلة وليلة نشرت ترجمتها في مجلة مواقف العدد ١٦/١٩٧١ :

« إن جميع شخصيات هذا الكتاب لا تنفك عن القص ، فهذا يعني تقديساً سامياً لهذا الفعل . فان تقص مساوٍ لأن تعيش ... والمثل الأكثر صدقاً على ذلك هو مثل شهرزاد التي سيحكم عليها بالموت حين لم تعد تجد قصصاً ترويها لشهريار . فالحكاية في هذا الكتاب تساوي الحياة وغيابها يساوي الموت » .

حقاً إن للحكاية أهمية كبرى في كتاب ألف ليلة وليلة ترقى إلى درجة التقديس ، فحكمها دائماً هو الحكم الفصل . وكم من أبطال القصص تعرضوا للهلاك ثم اشتروا حياتهم بحكايات طريفة رووها للعفريت أو الملك على سبيل الإقناع أو التسلية ، كما في حكاية (التاجر مع العفريت) وكان التاجر قد أكل تمرة ورمى نواتها فأصابت لأجل المقدر

مقتلاً من ابن العفريت فانتصب في الحال أمام التاجر وخيره أية ميتة يختار . فجاء أصدقاء التاجر الثلاثة ورووا للعفريت ثلاث حكايات اشتروا بها دم صديقهم التاجر .

كذلك نجد في حكاية (الخياط والأحدب) يطلب الملك من الأربعة المتهمين بقتل الأحدب أن يروي كل واحد منهم حكاية أعجب من حكاية الأحدب وإلا قتله بجريرة قتل الأحدب . فروى المتهمون أربع حكايات لتسلية الملك اشتروا بها حياتهم .

أما في حكاية (مكر النساء وإن كيدهن عظيم) فيدافع وزراء الملك السبعة عن ابن الملك البريء الذي اتهمته جارية أبيه بمراودتها عن نفسها ، بحكايات تصف مكر النساء وخداعهن ، فترد عليهم الجارية بحكايات تصف مكر الرجال . وتأتي حكايات الوزراء أكثر إقناعاً للملك فيعفو عن ابنه بعد أن حكم عليه بالموت . فلم يكن هناك من سبيل إلى إقناعه إلا الحكاية .

ولذا نجد في كثير من القصص يأمر الخليفة أو الملك أن تكتب الحكاية بماء الذهب ، وتحفظ في خزائن الدولة .

وهل هناك تقديس للحكاية أكثر من أن يتمنى رواتها في الكتاب أن تكتب بالإبر على آماق البصر لتكون عبرة لمن اعتبر .

السعي وراء المعرفة

ان أكثر شخصيات قصص الليالي قد فطرت على حب الإطلاع ، والسعي وراء المعرفة لايهمها في سبيل ذلك ما تتعرض إليه من مشقات ومخاطرات قد تؤدي بها إلى الهلاك .

فلو كان هناك أربعون مقصورة مباحة للبطل ، وواحدة فقط محرمة عليه ، لابد له من اقتحام تلك المحرَّمة مهما حذر من اقتحامها لمعرفة ما فيها ، أو السبب في تحريمها ولو كان وراء ذلك تعاسة أبدية .

أما السندباد بطل المغامرات الشائقة فعلى الرغم من الصعاب التي كانت تواجهه في سفراته كلها ، كان لا بد له أن يعاود السفر سعياً وراء المكاسب ، ولتروي له الحياة أشياء جديدة لن تشبع نهمه إلى المعرفة أبداً فيظل باحثاً عنها عمره كله .

إن حكايات السندباد تبدأ دائماً بهذا المقطع الذي يكاد لا يتغير في مطلع كل حكاية من حكايات سفراته السبع :

اعلموا يا إخواني أني لما رجعت من سفري إلى مدينة بغداد وغرقت في اللهو والطرب والانشراح ، وقد نسيت ما لقيته ، وما جرى لي ، وما قاسيته ، فحدثتني نفسي الخبيثة بالسفر إلى بلاد الناس ، وقد اشتقت إلى الفرجة والفوائد ، ومصاحبة الأجناس ، وسماع الأخيار ، والبيع والمكاسب .

وفي كل مرة كان السندباد يعود من سفرته سالماً غانماً على الرغم من الأهوال والمخاطر التي كانت تصادفه .

أليس هذا مما يحفز على الشجاعة والإقدام ، وحب المغامرة في سبيل اكتشاف المجهول ؟ مما يجعل لقصص السندباد قيمة تربوية كبيرة .

عنصر التفاؤل في القصص

لعل أحلى ميزات كتاب ألف ليلة وليلة هي التفاؤل ، والنهايات السعيدة التي تطالعنا في آخر القصص .

فمهما يكابد بطل القصة من مصاعب ومشقات ، ومهما يتعرض للمخاطر والهلاك ، لايستسلم إلى اليأس أبداً ، بل يظل يكافح حتى يأتيه الفرج ، وتزول عنه الشدة ، ويفوز بالنصر .

فالذين يحبسون في غياهب السجون ويوثقون بالحبال ، والذين يغرقون في البحار ، أو يتوهون في الجبال والوديان ، أو يقعون بين أيدي السحرة والجان ، لا بد أن ييسر الله لهم من ينقذهم . فيعود الغيَّاب إلى أهلهم ، ويجتمع شمل العشاق ، وتبتسم الحياة من جديد وتأخذ سيرها الطبيعي .

ان أكثر حكايات الليالي تنتهي بهذا المقطع :

وعاشوا في لذة ونعيم حتى أتاهم هازم اللذات ، ومفرق الجماعات فسبحان الحي الذي لا يموت .

فلا مكان لليأس والقنوط في حكايات الليالي ، إن فيها دعوة للحياة وتمجيداً لها .

المغزى الأخلاقي

إن أكثر قصص الليالي ترمي إلى غايات أخلاقية نبيلة ، ولا يضير ـ في رأينا ـ مؤلفي هذه القصص إذا أمعنوا في تصوير الجرائم ، والفسق ، والفجور ، والمكر والخداع ، واللصوصية والشعوذة ، والكذب والخيانة ، ما داموا آخر الأمر سينصرون الفضيلة على الرذيلة فيمجدون الشرف والوفاء ، والكرم والشجاعة ، والصدق والإخلاص ، ويحضون الإنسان على مجابهة مسؤولياته مهما يكن وراءها من تضحيات قد تؤدي إلى بذل النفس .

وقد أخذت قصة (الخياط الصيني والأحدب) لألخصها كنموذج على ذلك لأنني وجدتها أكثر حكايات الليالي إنسانية ، وتركيزاً على يقظة الضمير عند شخوصها بعد أن كادوا ينزلقون إلى مهاوي الإجرام .

ولأن القصة على الرغم من غرابة الخيال الذي انبثقت منه ، والبعد الزمني الذي بيننا وبينها ، كتبت بأسلوب واقعي لا يستبعد حدوثه أبداً ، يشبه ما يكتب الآن في أدبنا الحديث المعاصر .

حكاية الخياط الصيني والأحدب

قالت امرأة خياطٍ صيني لزوجها عاتبة ومهددة :

أنت طول النهار في حظلك ، وأنا قاعدة في البيت حزينة كئيبة !... فإن لم تخرج بي وتنزهني ، وتفرجيني بقية النهار كان ذلك سبب فراقي منك .

ويشعر الخياط أن زوجه جادة في قولها ، فيخشى تهديدها فيأخذها ويخرجان يتنزهان حتى يحين موعد العشاء فيعودان إلى بيتهما سعيدين فرحين . ويصادفان في طريقهما رجلاً أحدب قد أخذ منه السكر كل مأخذ ، فراح يرقص ويغني وينقر على دف في يده .

وكانت رؤيته تزيل الهم والحزن ، فأعجبت به الزوجة وأصرت على زوجها أن يدعوه لينادمهما في ليلتهما تلك . ويستجيب الأحدب لدعوتهما .

ويسرع الخياط الصيني إلى السوق فيشتري سمكاً مقلياً وخبزاً

وليموناً وحلاوةً ، ويعود إلى بيته ويقعد مع زوجه والأحدب ليأكلوا .

كانت زوجة الخياط الصيني مرحة لعوبا ، فيحلو لها أن تمازح الأحدب فتقطع لقمة كبيرة من السمك تحشرها في فم الأحدب وتسد فمه بكفها وتقول له :

والله ما تأكلها إلا دفعة واحدة ، وبنفس واحد .

ويشاء القدر أن تكون في اللقمة حسكة كبيرة تتصلب في حلق الأحدب فيغص بها وينقلب ميتاً من وقته .

ويسقط بيد الزوجان ، ويحاران بأمرهما ، ويركبهما هم كبير ، ويروحان يفكران بحيلة ليتخلصا من جثة الأحدب خشية أن يتهما بقتله .

وتشير المرأة على زوجها ، ــ والمرأة في كتاب ألف ليلة وليلة دائماً سيئة المشورة ــ أن يحملا الجثة إلى دار طبيب يهودي ، كانا قد سمعا عن شهرته ، ويدعيا أن الأحدب إبنهما جاءا به ليسعفه الطبيب من مرض ألم به في منتصف الليل .

ثم يتحايلان على الطبيب فيتركان الجثة عنده ، ويفران دون أن يبوحا بإسميهما ، ولا يصعب على الطبيب أن يجد مخرجاً للتخلص من الجثة .

ويطرق الزوجان باب الطبيب في منتصف الليل فتفتح لهما جارية سوداء فيدفعان إليها ربع دينار ويقولان لها :

ــ أسرعي ونادي مولاك ليطبب ابننا . إنه في خطر .

وما تكاد تدير ظهرها حتى يسندا جثة الأحدب إلى درج قائم في مدخل بيت الطبيب ويفرا هاربين لا يلويان على شيء .

أما الطبيب اليهودي فلما رأى الربع دينار فرح فرحاً شديداً حتى غدا لا يملك نفسه . ونهض من فراشه عجلاً ويهبط الدرج ، فتعثر رجله ، ويتدحرج ويجيء بالأمر المقدر فوق جثة الأحدب . فيظن أنه هو الذي قتله فيصيح :

يا للعزير !... يا للمولى والعشر كلمات !... ويا لهارون ويوشع بن نون !... ما أنا فاعل بقتيلي ؟؟...

ويهرع إلى زوجه مُرتاعاً يقص عليها ما حدث . فتهون عليه الأمر وتقول له :

لا عليك ... تعال نحمله ونندليه إلى دار جارنا المسلم ، إنه المباشر على مطبخ السلطان ، وفسحة داره لا تخلو من الكلاب والقطط التي ستعبث بالجثة ، أو تأكلها ، أو تسحبها إلى الخارج فتضيع معالمها وننجو نحن .

ويعجب الطبيب اليهودي بتدبير زوجه . فيقومان من فورهما ويحملان الجثة ويدليانها على مهل وحذر إلى دار جارهما المسلم ، فتأتي واقفة لصق الحائط تماماً . وإذا صاحب البيت يدخل داره حاملاً شمعة مضيئة فيرى إنساناً واقفاً لصق الحائط فيحسبه لصاً متوارياً ، وما أسرع ما يحمل مطرقة ويضربه بها ، وإذا هو يهوي ميتاً . ويرى المباشر أنه رجل أحدب فيقول :

لا حول ولا قوة إلا بالله !... أما يكفي أنك أحدب حتى تكون لصاً تسرق أموال الناس ؟ لعن الله هذه الليلة المشؤومة ... ما أدري كيف فرغت منية هذا الرجل على يدي ؟.. يا ستار استرني بسترك الجميل .

ويحمل الجثة في الظلام ويخرج بها إلى الطريق ، ويرى أن أحسن وسيلة للتخلص منها هو أن يوقفها بجانب دكان على رأس عطفة ثم يولي هارباً .

وإذا برجل نصراني يخرج من حانة قريبة ، قد نال منه السكر ، ويقول في سكره : إن المسيح قريب من ههنا . فما يزال يمشي ويتمايل في مشيته . وكان صبية الأزقة قد خطفوا عمامته ، وآذوه أول الليل ، وإذا هو يرى الأحدب مسنوداً إلى الدكان ، متوارياً وراء العطفة ، فيظنه أحد هؤلاء الصبيان العفاريت فيطبق يده على رقبته فيهوي إلى الأرض فيبرك النصراني على صدره ويأخذ بخناقه ، ويمر أحد الحراس فيسحب النصراني فإذا الأحدب تحته ميتاً فيقول له الحارس :

يا ويلك !... أتدري ماذا فعلت ؟ لقد قتلت الأحدب وهو مهرج السلطان ولا يصبر على فراقه أبداً !...

ويصيح النصراني :

يا مسيح !.. يا عذراء !.. ما أدري والله كيف قتلت هذا الرجل ؟؟ ما أسرع ما مات من لكمة واحدة !...

ويقبض الحارس عليه يكتفه ويجيء به إلى بيت الوالي فيحكم عليه الوالي بالشنق لأنه قتل الأحدب عمداً .

ويخرج المنادي على جري العادة آنذاك فينادي في البلد قائلاً :
حكم على فلان النصراني بالشنق لأنه قتل فلاناً الأحدب مهرج السلطان فمن أراد أن يتفرج عليه فليأت .

ويوضع الحبل في عنق النصراني .

ويسمع المباشر صوت المنادي فيقول :

لا شك أنه قتيلي ... أما كفاني قتيلٌ واحد حتى يقتل بسببي هذا النصراني أيضاً ؟.. ماذا أقول لربي يوم الحساب ؟.. معاذ الله أن أقع في مثل هذا الإثم .

ويقوم من فوره راكضا ويشق جموع الناس ويقول للجلاد :

لا تفعل أنا القاتل !...

ويروي للوالي قصته . فيأمر الوالي بإطلاق سراح النصراني ، وشنق المباشر المسلم باعترافه .

وينادي المنادي ، فيسمع النداء الطبيب اليهودي فيقول لزوجته :

أما سمعت ما سمعت ؟ أيجوز أن يشنق جارنا المسلم بسببي ؟ يا ويلي كيف أواجه ربي ؟!... أما يكفيني قتيل واحد ؟

ويسرع إلى الجلاد فيقول له :

لاتفعل أنا القاتل !...

ويروي قصته للوالي ، فيأمر هذا أن يفك المسلم ويشنق اليهودي باعترافه .

وينادي المنادي فيسمع الخياط الصيني النداء فيهرع من فوره إلى الجلاد ليقول له :

إياك أن تفعل أنا القاتل !..

ويعجب الوالي من هؤلاء جميعاً ويقول :

ـــ هذا يؤرخ في الكتب .

ويأمر أن يطلق سراح اليهودي ويشنق الخياط الصيني باعترافه .

ويقول الجلاد للوالي :

ـــ إلى متى يا سيدي نقدم هذا ونؤخر ذاك دون أن نشنق أحداً ؟؟

ويبلغ الخبر مسامع السلطان فيعجب ، ويأخذه الطرب ويأمر أن يكتب هذا بماء الذهب ويحفظ في سجلات الدولة .

ثم يأمر أن يؤتى بهؤلاء الأربعة ويطلب منهم أن يروي له كل واحد منهم حكاية أعجب من حكاية الأحدب وإلا قتله بجريرة الأحدب .

ويروي هؤلاء الأربعة للملك قصصاً طريفة عجيبة كانت أحداها قصة « مزين بغداد » وهي من الحكايات العربية ، ومن أروع حكايات الليالي وأكثرها مراعاة للفن القصصي .

على الرغم من أننا نجد كتاب « ألف ليلة وليلة » متعصباً أشد التعصب للدين الإسلامي ، وهذا أمر طبيعي فقد جمع الكتاب وألفت أكثر حكاياته العربية بعد الحروب الصليبية بما يقارب القرنين ، أي حين كان التعصب لا يزال على أشده بين الإسلام والمسيحية نجد القاص في قصة الخياط الصيني والأحدب ، واسع الأفق ، بعيداً عن التعصب كل البعد ، مؤمناً بالإنسان لمجرد أنه إنسان .

ويقول لنا في هذه الحكاية :

إن في الإنسان مهما يكن دينه أو ملته جذوة خير ، وقد تخبو ولكنها لا تنطفىء أبداً .

ويختار لحكايته هذه ، الوثني ، واليهودي ، والمسيحي ، والمسلم ، ويصورهم لنا على مستوى واحد من يقظة الضمير ، والتفاني المطلق في سبيل الواجب ولو كان وراء ذلك إزهاق الروح .

يروي القاص هذه الحكاية بأسلوب واقعي بسيط فكه ، ويجعلنا نستخلص مغزاها الإنساني النبيل دون أن يشير ، أو يلمح إليه من قريب أو بعيد كما يقضي بذلك الفن القصصي الرفيع .

في كتاب ألف ليلة وليلة حكايات كثيرة ذات مغزى أخلاقي كهذه الحكاية ، ويمكن استلهامها وتطويرها ، وهي لا شك معين ثر الينابيع نستطيع أن نغرف منه ، فيجد فيه كل غايته .

سيئات الكتاب

لقد ذكرت بعض محاسن هذا الكتاب قبل سيئاته كي لا أتهم بالتجني على هذا التراث العالمي النفيس . وكم يؤسفني أن أقول أن سيئاته لا تقل عن محاسنه ، هذا إن لم أقل قد تربو عليها .

فهو يسرف في بعض حكاياته في وصف الفجور والفسق والشذوذ مما كان يمكن الإستغناء عنه دون أن تتأثر الحكايات ، وربما تصبح أكثر جمالاً لو حذف منها الوصف الفاجر الذي أقحم عليها للإثارة الرخيصة .

نجد قصاصي الليالي لا يتورعون في بعض قصصهم عن تسمية الأشياء بأسمائها ، وعرض العلاقات الجنسية بصور فجّة ، فلو حذف من حكاية (البنات والحمال) الوصف البذيء الذي ورد في أولها لما تأثرت الحكاية أبداً ، بل على العكس لو هذبت ألفاظها لبدت أكثر جمالاً .

وهناك مآخذ أخرى على الكتاب منها كثرة التكرار ، فوصف البذخ ، والأماكن ، والأشخاص ، يكاد يكون متشابهاً إلى حد بعيد ،

فأكثر الجميلات لهن وجه كالبدر ، أو كالشمس المضيئة ، وفم كخاتم سليمان ، وشفتان كالعقيق ، وكل نظرة من جميلة تعقبها ألف حسرة ، كذلك كل عفريت له رأس كالقبة ، ويدان كالمداري ، ورجلان كالصواري ، وفم كالمغارة ، وأسنان كالحجارة . هذا مع كثرة الحشو لتطويل القصة ، وإقحام الشعر فيها وأكثره شعر ركيك نظمه القصاصون مما يؤدي إلى الملل .

أما الذي يدعو إلى العجب حقاً هو المغالطات التاريخية دون أي داعٍ . قد يروقنا مثلاً أن يدخل القصاصون شخصية هارون الرشيد المحبوبة في كثير من قصصهم المبتكرة ، وأن يتخذوا من قصره الذي عرف عنه البذخ والترف مسرحاً لهذه القصص ليضفوا عليها روعة ومهابة . أما أن يأتي القاص بالشاعر جميل بن معمر ليروي لهارون الرشيد حكاية ، وبين موت الشاعر وولادة الرشيد أكثر من نصف قرن ، وكان بإمكان القاص أن يسند رواية هذه الحكاية إلى أي نديم من ندمان الرشيد ، أو أي شاعر من الشعراء المعاصرين له ، فهذا لا مبرر له أبداً وإن دل على شيء فهو يدل على عدم الدقة في الرواية ، وعلى جهل فاضح بالتاريخ ، تتكرر هذه المغالطات التاريخية في كثير من القصص ، وقد أوردنا بعضها على سبيل المثال .

أما المغالاة التي لا حدود لها في وصف البذخ ، والكرم والشجاعة ، والعواطف الجياشة فقلما تخلو منها قصة ، وقد تدعو أحياناً إلى عكس ما رمى إليه القاص ، فربما جعلتنا نتهم هؤلاء المسرفين في غلوهم بالهستيرة أو الجنون عوضاً من أن نجلهم ، أو نشفق عليهم .

ففي حكاية (هارون الرشيد مع الشاب العماني) يتبرع الرشيد

للفتى العماني الذي أضاع ثروته نتيجة الخداع والغش فأصابته صفرة في وجهه شوهت جماله بخراج بغداد ، والبصرة ، وخراسان مرة واحدة !... أليس هذا مما يسيء إلى الرشيد ويجعلنا نشك في سلامة عقله ؟

وفي حكاية (الرشيد مع محمد بن علي الجوهري) نجد الجوهري هذا بعد أن هجرته زوجته كلما سمع غناءً عن الحب يشق ثيابه من أعلى إلى أسفل ويقع مغشياً عليه ، فيأتي غلمانه ويرشون وجهه بماء الورد حتى يصحو ، ثم يأتونه بثياب جدد فيلبسها ويعود لسماع الغناء فيغشى عليه من جديد ، ويشق ثيابه أيضاً حتى يمزق أربع بذلات يساوي ثمن كل منها أكثر من ألف دينار !...

أما غانم بن أيوب ومعشوقته قوت القلوب وأمه وأخته فيغشى عليهم جميعاً ساعة زمانية عندما يجتمعون بعد فراق طويل .

لكن شمس النهار يذهب بها سماع غناء عن الحب إلى أبعد من ذلك ، يذهب بها إلى الموت فتقع ميتة من فورها . كذلك يموت في نفس الوقت حبيبها علي بن بكار عندما يسمع أحد المارة يتغنى ببيت من الشعر عن ألم الفراق .

أما التاجر مسرور وعشيقته زين المواصف فكان يغشى عليهما كلما افترق الواحد عن الآخر . وهذا مقطع من قصتهما يبين لنا هذا الإسراف في الغلو :

ما زال التاجر مسرور ملازماً للركب وهو يبكي وينتحب ، وزين المواصف تستعطفه من أجل أن يرجع قبل الصباح خشية الإفتضاح ، فتقدم إلى الهودج وودعها ثاني مرة وغشي عليه ساعة زمانية ، فلما أفاق

وجدهم سائرين فعند ذلك رجع مسرور إلى دار زين المواصف وهو في غاية الإشتياق ، فرآها خالية من الأصحاب موحشة من الأحباب فبكى حتى بل ثيابه وغشي عليه وكادت أن تخرج روحه من جسده ، وقد غشي عليه ساعة من الزمان فلما أفاق قام وتوجه إلى منزله ، وصار متحيراً من أجل ذلك باكي العين ،ولم يزل على هذه الحال مدة عشرة أيام .

والأدهى من ذلك أن القضاة الأربعة الذين حكموا لزين المواصف بالطلاق من زوجها عشقوها كلهم وماتوا حباً بها ، فكان كلما بلغ أحدهم خبر فرارها يشهق شهقة واحدة ثم ينقلب ميتاً . أليس هذا الإسراف في الغلو مما يثير الضحك عوضاً من أن يثير الشفقة على هؤلاء العشاق التعساء ؟ أما أكبر مساوىء الكتاب فهو موقفه من المرأة كما سنرى في الصفحات القادمة .

المرأة في ألف ليلة وليلة

يقول الأديب الأستاذ أحمد حسن الزيات في دراسته عن ألف ليلة وليلة :

« إن أسوأ ما سجله ألف ليلة وليلة من ظلم الإنسان ، وجور النظم هو القسوة الجائرة على المرأة ، فإن حظها فيه منكود ، وصورتها فيه بشعة . »

وأنا أقول ليس مهماً جداً أن يظلم كتاب ما المرأة ـــ وما أكثر ظلامها بين الكتب ـــ ولكن هذا الكتاب بالذات كان له تأثير عجيب على المرأة في المجتمع الشرقي ، وبخاصة العربي منه ، ومن سوء خظها أن الكتاب شائق جداً ، يجذب العامة ببساطته وصراحته وبما فيه من عجائب وغرائب ، ووصف فاجر ، وكلام بذيء فاحش يتملق شهواتهم ، ويدغدغ غرائزهم ، ويجذب الخاصة بما فيه من خيال مجنح جامح ، وفن قصصي أصيل ، وبما في طياته من رموز وحكم مستقاة من واقع الحياة .

وقد شاع في عصور كان فيها السمر وقص الحكايات أكثر وسائل الترفيه عن النفس شيوعاً .

كانت حكايات الليالي تواكب الطفل منذ تفتحه حتى شيخوخته ، كانت تقصها عليه أمه أو جدته قبل أن ينام وهي لا تعي ما ترسم في مخيلة وليدها من صور شنيعة لبنات جنسها فإذا كبر الطفل قليلاً سمع هذه الحكايات يتداولها السمار في السهرات ، فإذا خرج إلى المقاهي سمع القصاصين أي ــ الحكواتية ــ يقصونها على جماهيرهم التي لا تشبع من تردادها أبداً وقلما تخلو من الطعن بالمرأة فترسخ في ذهن الطفل من وراء الشعور ، ومن كثرة التكرار صورة مخيفة للمرأة .

إذا رآها عجوزاً تمثلت في مخيلته عجائز ألف ليلة وليلة اللواتي لا عمل لهن سوى أن يوقدن نار الفتن في كل مكان وجدن فيه . يدخلن البيوت الآمنة المطمئنة بحجة أن الصلاة أدركتهن ، فإذا توضأن وصلين وسبحن ، وأنست بهن ربة البيت ، ووثقت بطيبتهن ، رحن يفسدنها ، ويقدنها إلى الخطيئة . ولا أحب إلى نفوسهن من أن يصلن المنكر بين النساء والرجال ، وما أكثر نماذجهن في حكايات الكتاب .

وإذا رآها كهلة تتمثل في خياله لصة شريرة ، مخادعة ، كدليلة المحتالة ، وبنتها زينب النصابة ، اللتين وقفتا أمام الخليفة وراحتا حين استدعاهما ، تتباهيان ، وتتباريان في ابتكارهما للحيل ، وقدرتهما على الخداع واللصوصية ، حتى فاقتا أمثالهما من الرجال في هذا المضمار . ولا يسع الخليفة إلا أن يجري لهما راتباً ليكف أذاهما عن الناس .

أو يتصورها الطفل سليطة اللسان ، لئيمة ، مشاكسة لزوجها

كزوجة معروف الإسكافي . أو داهية خبيثة ، تحوك المؤامرات ، وتدبر المكائد التي لا تخطر على بال الرجال كشواهي ذات الدواهي في قصة عمر النعمان .

كانت شواهي تتجسس على جيوش المسلمين ، فترتدي زي ناسك مسلم ، ويبلغ من دهائها أنها تتزعم المسلمين ، وتشير عليهم بالقتال ، وتذكرهم بمجدهم الإسلامي ، لتنطلي عليهم حيلها ، حتى يأتمروا بأمرها فتوردهم موارد الهلاك . ثم تحتال على عمر النعمان فتقتله بواسطة الجواري الجميلات اللواتي دستهن له ، ليفتتن بهن . ثم تجهز أيضاً على إبنه الجريح شريكان . ثم ينتصر المسلمون وينكشف أمر ذات الدواهي فتصلب على سور مدينة بغداد .

أما المرأة الصبية الجميلة في حكايات ألف ليلة وليلة فهي الخيانة بعينها !.. لا ترعى عهداً ، ولا ذماماً ، لزوجها أو أبيها ، أو أخيها حتى ولا لدينها ، مخلصة فقط لعشيقها . ترتكب في سبيل الوصول إليه أفظع الجرائم ، وتسلك أقذر الطرق ، تجيد السحر وتلجأ إليه لتحقيق أغراضها فتمسخ الآدميين من أعدائها كلاباً وقروداً أو أحجاراً صماء .

هل ننتظر من كتاب بني على خيانة المرأة ، أن ينصف المرأة ؟؟!.

في مقدمة الكتاب أتيحت للملك شهريار الفرص لأن يرى زوجته الملكة تخونه مع أحد عبيده . كما فعلت من قبل زوجة أخيه الملك شاه زمان . فيعتري شهريار التقزز والإشمئزاز من الدنيا ، فيزهد هو وأخوه شاه زمان بالملك . ويخرجان متخفيين يضربان في الأرض مثل الزهاد من عباد الله ليريا هل حدث لغيرهما مثلما حدث لهما ؟. وينتهي بهما المسير

إلى شاطىء موحش فيدركهما الخوف ، ويجدان شجرة ضخمة فيتسلقانها ليناما عليها خشية الوحوش ، وإذا البحر يهيج ويموج ، ويخرج منه مارد طويل القامة ، كبير الهامة ، واسع الصدر ، يحمل على كتفه صندوقاً كبيراً ، ويخرج منه علبة أنيقة ، يفتحها أيضاً فتبرز منها صبية رائعة الجمال ، تجلس مع المارد ، ويتنادمان ويتغازلان . ثم ينام المارد متخذاً من حضن الصبية وسادة لرأسه . فإذا غرق في نومه ترفع الصبية رأسها وتتأمل الشجرة فترى عليها الرجلين فتشير إليهما أن ينزلا ، وإلا توقظ المارد ليفتك بهما . فينزلان إليها خائفين وجلين .

ثم ترفع الصبية رأس المارد عن حضنها وتضعه على حجر غير مبالية به ، ولا خائفة منه ، ثم تجلس مع الملكين المتخفيين تغازلهما ، وترتكب معهما الخطيئة ، ثم تأخذ خاتميهما على سبيل التذكار ، لتضيفهما إلى عقد تخرجه من جيبها فإذا فيه خمسمائة وسبعون خاتماً . وتقول للرجلين :

عشقني هذا المارد فخطفني يوم عرسي ، ووضعني في علبة وضعها في صندوق عليه سبعة أقفال لا يستطيع أن يفتحها أحد غيره ، ثم رمى الصندوق في قعر البحر . وعلى الرغم من ذلك كله استطعت أن أخونه كلما غفل عني مثل غفلته هذه ، مع أصحاب هذه الخواتم كلها ، ثم تقول :

ــ إن المرأة منا إذا أرادت أمراً لم يغلبها أحد .

ويقول الملك شهريار لأخيه الملك شاه زمان :

ــ ما أهون أمرنا إلى جانب هذا الجني !..

إني لأتصور حكواتياً ماهراً يلقي هذه القصة على جمهرة من الرجال في أحد المقاهي ، والرجال يصغون إليه مأخوذين ببراعة إلقائه التمثيلي ، فإذا فرغ منها راح الرجال ينظرون برعب في عيون بعضهم ، ثم يعلقون

على الحكاية ، ثم يكيلون أقذع السباب لجنس النساء ، ثم ينهون كلامهم بالرأي المعروف :

المرأة شر ، وشر منها أن لا غنى عنها .

ولتفادي هذا الشر يجب عزل المرأة عن مجتمع الرجال ولتبق قعيدة بيتها حتى موتها .

لكي يزيد الكتاب في النقمة على المرأة نجده حين يصور الزوج المخدوع ــ كما في قصة الصياد والعفريت ــ يصور لنا شاباً بارع الجمال ، أميراً أو ملكاً ، نظيفاً ، كريماً شهماً . وحين يصور العشيق يصوره عبداً بشعاً ، له شفة غطاء ، وشفة وطاء تلقط الرمل عن الحصى . قذراً ، يسكن كوخاً حقيراً ، تنبعث منه الروائح الكريهة . ويجعل الأميرة الجميلة تضع كل يوم البنج في شراب زوجها ، وغالباًهو ابن عمها ، لتخدره ، وتخرج من قصرها المنيف لتذهب إلى عشيقها القذر وتجتمع به في كوخه الحقير ، وإذا تأخرت عن موعدها ينتهرها ويهينها ، وهي ترتكب من أجله أبشع الجرائم ، حتى إذا تبعها زوجها ذات مرة بعد أن أوهمها أنه شرب البنج كعادته ورأى عشيقها ضربه بالسيف ضربة لم تقض عليه ، فإذا المرأة تسحر زوجها في الحال فتجعل نصفه الأسفل من حجر ملتصق بالأرض ، وتظل تضربه كل يوم بالسوط حتى يسيل دمه ، وهو يصيح ويتوسل إليها لتكف عن ضربه فتقول له :

ــ كيف تريدني أن أشفق عليك ، وأنت لم تشفق علي حين ضربت عشيقي بالسيف حتى جرحته جرحاً لم يبرأ منه إلى الآن ؟. ولم تكتف المرأة بما فعلت بزوجها الملك ، بل سحرت أيضاً رعاياه كلهم فجعلتهم سمكاً متعدد الألوان في بحيرة نائية .

في حكاية أخرى تريد إمرأة أن تمتحن عشيقها لترى مدى إخلاصه ووفائه لها ، فتصطحب معها حين تذهب إليه أختها الصبية الصغيرة الجميلة ، وتروح تغريهما ببعضهما ، وتسقيهما الخمرة حتى يستجيبا لإغرائها وعندئذ تتقد فيها نار الغيرة ، فإذا نام العاشقان تستل سكيناً فتذبح أختها لتشفي غليلها منها ، ثم تضع السكين في يد الشاب ليتهم أيضاً بالجريمة وتولي هاربة .

والمرأة الأخت ، في ألف ليلة وليلة ، حاسدة لأختها الأصغر والأجمل . كذلك يصورها الكتاب لا تقيم وزناً للحرمات والكبائر .

في قصة قمر الزمان ابن الملك شهرمان تعشق كل زوجة من زوجتيه الإثنتين ابن ضرتها وتغريه فإذا لم يستجب لها تروح تكيد له ، وتتهمه أمام أبيه بمراودتها عن نفسها .

تتكرر القصة في حكاية الوزراء السبعة . حيث تراود محظية الملك المفضلة ابن الملك عن نفسه ، فإذا تعفف عنها حرمة لأبيه ، تحقد عليه وتروح تتهمه أمام أبيه الملك وتدعي أنه هو الذي راودها عن نفسها . فيغضب الملك ويأمر بقتل ولده الوحيد . عندئذ ينبري وزراء الملك السبعة للدفاع عن الإبن ، المتهم البريء . فيروي كل يوم واحد منهم حكاية عن كيد النساء وغدرهن لإقناع الملك ، وتقف الجارية وحدها متحدية الوزراء السبعة ، وتروي كل يوم للملك حكاية عن كيد الرجال وخداعهم . وتأتي الحكايات التي تدين المرأة أكثر إقناعاً من تلك التي تدين الرجل . كما يريد الكتاب أن يثبت في أكثر مواقفه من المرأة .

لا يتورع الكتاب عن أن يتهم بالجريمة الدنيئة شخصيات نسوية

ذات قيمة تاريخية ، كزبيدة زوجة هارون الرشيد . حين غارت من الجارية قوت القلوب ، فانتهزت فرصة غياب الخليفة عن القصر وخدرت الصبية بالبنج ثم وضعتها في صندرق وأقفلت عليها ، وأمرت عبيدها أن يدفنوا الصندوق في خرابة مهجورة . ثم صنعت في القصر قبراً وضعت فيه لعبة من خشب ، وأعلنت الحداد في القصر ليصدق الخليفة فريتها . ولو لم ير غانم بن أيوب ، المتيم المسلوب ، العبيد وهم يدفنون الصندوق ، وينقذ الصبية في الوقت المناسب ، لماتت شر ميتة .

وحين يضفي الكتاب على المرأة صفات البطولة الخارقة لا ينزهها أيضاً عن صفات الخيانة ، إنما يشفع لخيانتها في نظر الكتاب اعتناقها دين الإسلام .

مريم الزنارية ابنة ملك مسيحي ، تصورها الحكاية أميرة بارعة الجمال ، وفارسة مغوارة لا يشق لها غبار ، تطوح بها الأقدار فتباع جارية في سوق الرقيق . ويشتريها الفتى المسلم علي نور الدين فتعشقه وتعتنق من أجله دين الإسلام . ويظل أبوها جاداً في البحث عنها حتى يعثر عليها فيعيدها إلى قصره أميرة عزيزة مكرمة ، ولكنها لا تلبث أن تغدر به ، فتفر من القصر بعد أن تسرق جوادي أبيها الأثيرين : السابق ، واللاحق . مع ما تستطيع حمله من الأموال والجواهر . ويرسل أبوها في طلبها أخويها ، والوزير الكبير ليأتوه بها . فإذا عثروا عليها مع عشيقها تجرد سيفها وتخوض معهم معركة ضارية تخرج منها ظافرة بعد أن تقتل أخويها والوزير الكبير ، ثم تفر مع عشيقها الذي كان يحتمي في ظلالها حين تخوض المعارك .

إن أكثر حكايات الليالي مشحونة بأمثال هذه الجرائم البشعة الدنيئة التي كانت ترتكبها المرأة إرضاءً لغرائزها .

ترى أي أثر كانت تتركه هذه الحكايات عن المرأة في نفوس أناس ظلت تتكرر على مسامعهم أطفالاً ، ومراهقين ، وشباناً وشيوخاً ؟؟...

لا شك أنه ثبت في النفوس ، ووقر في الأذهان أن المرأة عنصر شر ، ولا سبيل إلى تفادي هذا الشر إلا إذا حبست في بيتها ، لتشل حركتها ، ويكف أذاها . والرجل الحكيم الأريب هو الذي لا يدعها تخرج من البيت في عمرها كله إلا مرتين فقط ، من بيت أبيها إلى بيت زوجها ، ومن بيت زوجها إلى القبر !..

لقد زرع هذا الكتاب الشك في قلوب الرجال فجعلهم لا يأتمنون النساء أبداً ، والأدهى من ذلك كله أنه شكك المرأة في نفسها أيضاً . فطالما سمعنا عجائزنا يرددن هذا القول : (الحية والمريَّة لا ترفع عنهما العصية) .

كان من جراء ذلك كله أن حرمت المرأة من العلم . كانت الجارية تثقف ليزداد ثمنها . أما الحرة فكانوا يقولون عنها : ماذا ينفعها العلم سوى أن تكتب مكاتيب الغرام ، أو طلاسم السحر ؟.

هذا مع العلم أن كتاب ألف ليلة وليلة يحض على تعليم المرأة ، نجده حين يمدح المرأة في كثير من قصصه يصفها بالعلم الغزير . لكن القارىء يشعر أن علم المرأة الذي يتحدث عنه الكتاب كان للمباهاة أكثر منه للممارسة الفعلية . لذا كان له رد فعل معاكس عند المثقفين .

وبعد ذلك كله أأكون مغالية إذا قلت أن هذا الكتاب كان من

أكبر العوامل التي دعت إلى تأخر المرأة في الشرق الإسلامي بعامة ، وفي الشرق العربي بخاصة .. وبتأخر المجتمع كله عن ركب الحضارة . ألا تربو هذه السيئة وحدها على حسنات الكتاب كلها ؟ غير أن العلم الصحيح وحده حرر المرأة مما افتراه واقترفه عليها مؤلفو الليالي . حين تثقف الرجل ثقافة واعية أدرك أن المجتمع لا ينهض إلا بتثقيف المرأة أيضاً . فراح المصلحون يكافحون ليزيلوا من الأذهان ما علق بها طوال قرون عديدة من أضاليل وأكاذيب بحق المرأة لا يقرها خلق ولا دين .

وتدول دولة هذا الكتاب بعض الشيء ، ولا سيما بين العامة فيفقد كثيراً من تأثيره على المجتمع حين لم يعد لقص الحكايات شأن كبير كما كان في الماضي ، بعد السينما ، والراديو ، والتلفزيون ، ومجلات التسلية ، وكتب الأطفال . ويصبح الكتاب للخاصة أكثر منه للعامة . ولا يصعب على الخاصة أن تدرك الأسباب التي دعت مؤلفي الليالي لأن يتخذوا هذا الموقف الجائر من المرأة . كانوا حين يصفون حقيقة واقعها في عصور الإنحطاط ، أي في أحلك العصور التي مرت على المرأة في شرقنا العربي . حين طغت الجواري على الحرائر ، وأصبحت المرأة الحرة قعيدة بيتها معزولة عن المجتمع ، لا يؤبه لها أبداً ، محرومة من العلم والثقافة .

أما الجارية فما كانت أيضاً إلا امرأة ضعيفة ، مغلوبة على أمرها لا حول لها ولا طول ، تباع وتشترى ، وقد دربت على أفانين الإغراء منذ صغرها ، وتثقفت ثقافة تصلح لمنادمة الرجال في أوقات لهوهم ، وكلما تداولتها الأيدي ماتت في نفسها الكرامة والمروءة . ومن كان هذا شأنها كان لا بد لها أن تلجأ إلى ما يلجأ إليه الأذلاء ، وضعاف النفوس ، من كذب ، ونفاق ، وخداع ، ودس ، وإغراء ، ومؤامرات دنيئة لتعزز

مكانتها في قلوب الرجال ، وغالباً كانت بتفوز بما تريد ، وتحقق مآربها بهذه الطرق الوضيعة . وكان هذا الوضع لا بد أن يدفع بعض الحرائر لأن ينهجن منهج الجواري ليستطعن مجاراتهن ، ويعززن أيضاً مكانتهن في قلوب رجالهن .

هذه الظاهرة تبرز واضحة في التاريخ الإجتماعي للقرون الوسيطة في شرقنا العربي . وحين نقول ظاهرة نعني الحالة الأكثر شيوعاً ، فهذا لا يمنع أيضاً من وجود بعض الحرائر ، أو الجواري ممن ساعدتهن ظروف خاصة لأن يعشن حياة كريمة عزيزة تجعلهن في غنى عن التردي في مثل هذه الصغائر ، ولكن على كل حال كن أقلية لا تمثل وجه المرأة الصحيح في تلك العصور .

وتجيء حكايات ألف ليلة وليلة بما فيها من جاذبية أخاذة تصف هذا الواقع مع كثير من الغلو الذي كان طابع الأدب وبخاصة الفن القصصي السائد آنذاك .

كان لهذا كله أثره البالغ على المجتمع ، وكان من جراء ذلك أن ساعدت هذه الحكايات التي عمرت طويلاً على الإستمرار في ظلم المرأة ، والحد من حريتها عصوراً طويلة .

وبعد هذا كله ألا نجد أن صورة المرأة في حكايات ألف ليلة وليلة ما هي إلا رمز للإنسان الضعيف الذليل ، المغلوب على أمره ، والذي يتراكم في أعماقه الكبت فوق الكبت أجيالاً بعد أجيال حتى يصبح حقداً أسود . فحين كانت تسنح له الفرص يضرب ضربته اللئيمة النكراء ليشفي بها حقده الدفين ، كما كانت تتصرف النساء في أكثر حكايات الليالي .

ما الفارق بين تلك الصبية المنكودة الحظ التي خطفها المارد يوم عرسها ووضعها في صندوق عليه سبعة أقفال ثم رماه في البحر ، وبين الكثيرات من صبايا ذلك العصر اللواتي كن يزوجن أو يبعن على الرغم منهن لشيوخ قد يكونون أشد بشاعة من ذلك المارد . فيروحون يحبسون الصبايا في بيوت أو قصور ، ويسدون عليهن الأبواب والنوافذ ، ويجعلون منهن أداة متعة ولذة فقط ، حتى يقتلوا فيهن الكرامة والشعور بالإنسانية . فإذا أتيحت الفرص لهؤلاء السجينات المقهورات المكبوتات ، تصرف بعضهن تصرفاً أرعن ، ورحن ينتقمن من ظلامهن كما انتقمت المرأة الفاجرة عشيقة المارد .

الذي يعزز هذا الرأي هو أننا نجد المرأة في حكايات ألف ليلة وليلة تخلص ، وتفي الوفاء كله للرجل الذي تحبه ، وتختاره بمحض إرادتها . وتفضله دائماً على ذاك الذي يفرض عليها فرضاً ، زوجاً كان أو مالكاً لها مهما يكن رفيع الشأن عزيز الجانب .

فحين كان يخيرها الخليفة بين العيش في قصره ، أو الزواج بمن تحب ، كانت تختار دائماً الزواج بمن تحب ولو كان فقيراً معدماً على العيش في قصر الخليفة على ما فيه من ترف ورفاه ، كما فعلت تودد الجارية مع الرشيد ، وقوت القلوب مع الرشيد أيضاً والجواري الخمس مع المأمون .

والذي نلاحظه هو أن الكتاب يضفي على المرأة ذكاءً خارقاً ، مشوباً بالخبث والدهاء ، يبدو أمامه الرجل غبياً بليداً .

وفي الكتاب حكايات كثيرة تؤيد هذا الرأي ، لا بد أن نلخص أطرفها كنموذج لذكاء المرأة في حكايات الليالي ، ومكرها وخداعها ،

وغباء الرجل ، وانطلاء الحيل عليه . مهما تكن مكانته في المملكة !.

يحكى أن امرأة من بنات التجار كان لها زوج كثير الأسفار ، فسافر ذات مرة إلى بلاد بعيدة ، وأطال الغيبة ، فزاد عليها الحال ، فعشقت غلاماً ظريفاً من أبناء التجار . وتصادف أن تخاصم الغلام مع شريك له فشكاه الشريك إلى الوالي ، ويأمر الوالي بحبس الغلام . ويشتد الأمر على العشيقة الولهى ، زوجة التاجر التي كانت لا تصبر أبداً على فراق الغلام ، فتعزم على تخليصه من السجن مهما يكلفها الأمر . فتتزين أبهى زينة وتذهب إلى الوالي وتقول له : أن زوجها مسافر ، وأن الغلام أخوها الوحيد الذي يقوم بأودها ، وهو بريء مما اتهم به . وتروح تتوسل إليه وتغريه بجمالها ودلالها حتى يقع في حبائلها ، ويعدها إن استجابت لدعوته أن يعفو عن الغلام . فتقول له أن مجيئه إليها أضمن للستر من مجيئها إليه . وتدله على بيتها ، وتضرب له موعداً . ثم تخرج من لدنه وتذهب إلى القاضي ، ثم إلى الوزير ، ثم إلى الملك نفسه . ويكون شأنها مع هؤلاء جميعاً كشأنها مع الوالي . فتضرب لكل واحد منهم موعداً لا يبعد عن موعد الآخر . ثم تذهب إلى نجار وتطلب منه أن يصنع لها خزانة بأربع طبقات ، ولكل طبقة باب عليه قفل محكم . وتعده بأن تدفع له أربعة دنانير إذا جاءت الخزانة وفق طلبها . ويؤخذ النجار بجمالها فيقول لها : أنه سيصنع الخزانة كما تريد تماماً دون أجر ، إن استجابت له . فتقول له : كما تريد . اصنع إذاً للخزانة خمس طبقات . وتعال إلى بيتي في الموعد الفلاني .

ثم تذهب إلى السوق فتشتري ثياباً مهلهلة ، ثم تصبغها عند صباغ بألوان متعددة ، وتشتري طراطير ملونة أيضاً ، وتعود إلى بيتها . فإذا حانت المواعيد تتزين ، وتتطيب ، ثم تعد الطعام ، والشراب ، والمشموم .

وإذا الباب يطرق ، وإذا هو القاضي بوقاره وهيبته ، فترحب به أجمل ترحيب ، وتوآنسه ، ثم تقول له : ألا تتخفف يا سيدي من ثيابك الثقيلة هذه ؟ ثم تأتيه بثوب أحمر ، وطرطور أصفر ، فيخلع القاضي ثيابه ، ويلبس الثياب التي جاءته بها ، وما يكاد يجلس إلى جانبها يستمتع بها حتى يطرق الباب ، فتتظاهر المرأة بالارتباك والاضطراب فيرتعب القاضي ، ويخشى الفضيحة ، ويسألها : من الطارق ؟ فتقول له : لا بد أنه زوجي قد عاد من سفره . فيقول لها : وما العمل ؟. تقول له : لا عليك .. ادخل هذه الخزانة . وتفتح له أول طبقة ، فيدخلها ، وتقفل عليه الباب . ثم تستقبل الوالي ، ويحاول مغازلتها فتقول له : هذا لا يكون أبداً إلا بعد أن تكتب لي كتاباً بإطلاق أخي من السجن ليطمئن بالي . فيخرج ورقة وقلماً ويكتب إلى خزنداره : ساعة وصول هذا الكتاب تطلق فلاناً من سجنه من غير إمهال أو إهمال ، ولا تراجع حامله بكلمة . ثم يختم الكتاب بختمه ويدفعه إليها . ويكون شأنه معها كشأن القاضي . ثم يأتي الوزير ، ثم الملك ، ثم النجار فتحبس كل واحد في طبقة من طبقات الخزانة بعد أن يخلعوا ثيابهم الثمينة ، ويلبسوا الثياب المهلهلة ، والطراطير الملونة . ثم تأخذ ثيابهم الثمينة ، وتطلق عشيقها من السجن ، وتفر معه إلى بلد بعيد .

ويظل الرجال محبوسين في الخزانة ثلاثة أيام ، وهم يصرخون ، ويبكون ويستغيثون ، ويبول بعضهم على بعض ، حتى يسمع الجيران صراخهم . فيكسر الجيران باب البيت ، ولما يسمعون الأصوات تنبعث من الخزانة يهمون بحرقها بمن فيها .

ويسمع القاضي قولهم فيهلع قلبه رعباً ، ولا يجد مخرجاً من محنته

هذه سوى أن يتلو آيات من القرآن بصوت عالٍ . ويسمع الناس تلاوة القرآن فيتأكد لهم أن ليس في الخزانة جن ولاعفاريت ، فيكسرون عندئذ أبوابها . ويخرج الملك ورجال المملكة مكسوفين خجلين بهيئاتهم الزرية ، وطراطيرهم الملونة فيضحك منهم الناس ، ويصبحون هزأةً يتندر بهم في المجالس .

كأن القاص أراد أن يعطي صورة عن فساد الحكام وغبائهم في عصره فجاء بهذه الحادثة ليسخر منهم ويصورهم أشنع صورة . وجعل المرأة بطلة الحادثة لتفضح بذكائها الخارق فساد هؤلاء الحكام .. الفساد الذي تطرق منهم إلى أفراد الشعب أيضاً فجاء ممثلاً بالنجار . لأن الناس على دين ملوكهم كما يقال .

نجد في كتاب ألف ليلة وليلة حكايات كثيرة أمثال هذه الحكاية تثبت ذكاء المرأة ، وخبثها ودهاءها . وبلادة الرجل ، وطيبته المشوبة بالغباوة . ولذا كان الرجل يهرع إلى القوة ليستر نقصه أمام المرأة . ويظل الصراع قائماً بين المرأة والرجل في أكثر حكايات الليالي .

إن الذي يسوِّغ بعض الشيء لمؤلفي ـــ ألف ليلة وليلة ـــ ما جنوه على المرأة هو ابتكارهم شخصية ـــ شهرزاد ـــ وهي شخصية رئيسية في الكتاب تواكبه منذ المقدمة حتى آخر كلمة فيه .

كأنهم أرادوا أن يقولوا لنا :

حين تكون المرأة ذليلة ، جاهلة ، مغلوبة على أمرها ، يكون واقعها

كما تصوره هذه الحكايات من خبث وخداع ، ومكر ودهاء وخيانة ، وذكاء منصرف نحو الشر .

أما حين تكون عزيزة الجانب ، حرة في تصرفها ، واسعة الثقافة والعلم ، فتستطيع حينئذ أن تكون شهرزاد تلك الإنسانة الرائعة التي قرأت ألف كتاب من كتب التاريخ والملوك الخالية والشعراء كما ورد في قصتها . لم يستطع أبوها أن يثنيها عن عزمها حين أصرت على الزواج من الملك العاتي ـــ شهريار الذي ظل ثلاث سنوات بعد أن رأى ما فعلته المرأة الفاجرة ـــ عشيقة المارد ـــ يتزوج كل ليلة صبية ثم يقتلها عند الصباح ، حتى يضج أهل المملكة من هذا الظلم الفادح ، ويهربوا ببناتهم .

ولما لم يجد الوزير في المدينة كلها بنتاً واحدة تصلح للزواج ليقدمها إلى الملك ، يعود إلى بيته كئيباً حزيناً ، يخشى أن يغضب عليه الملك فيقتله شر قتلة . عندئذ تتقدم منه ابنته الكبرى شهرزاد وتقول له بكثير من الثقة :

أنا يا أبتي سأتزوج الليلة من الملك ، عسى أن يجعل الله خلاصك ، وخلاص بنات هذا البلد على يدي .

تقدم شهرزاد على هذه المغامرة الخطرة واثقة من نفسها وذكائها . لتنقذ أباها ، وبنات جنسها من شر الملك العاتي شهريار .

تبدو لنا شهرزاد في كتاب ألف ليلة وليلة كرمز للعاطفة الصادقة ، والتضحية التي لا حدود لها ، والتفاني في سبيل الآخرين . كما تبدو كرمز للتسامح والغفران .

وما أبشع الحياة وأقساها بدون ذلك كله .

لم تحاول شهرزاد أن تنتقم لبنات جنسها من المجرم شهريار . فتدس له السم مثلاً ، وهي الداهية الأريب .

أو تغرس في قلبه خنجراً حين يغفو ، وهي الشجاعة المقدامة . بل غفرت له آثامه الفظيعة ، وراحت بتسامح أم حنون تمسح بيدها الناعمة العطوف على جبهته المتعبة ، وتداري نفسه المريضة ، لتعيده إلى صوابه ، فتقص عليه الحكايات المشوقة المسلية ، وحين يدركها الصباح كانت تسكت عن كلامها المباح ؛ فيرجىء الملك قتلها إلى الغد حتى تتم الحكاية وما تنتهي منها حتى تبدأ حكاية أخرى أكثر إغراءً وطرافة .

وتظل شهرزاد ثلاث سنوات كاملة تحكي الحكايات ، وتبتكر الأقاصيص بصبر أنثوي عجيب ، تفعل هذا كله وهي مهددة بالقتل صباح كل يوم ، فلا تبالي بنفسها ، بل تظل مثابرة على خطة اختطتها ، حتى تروض بقدرتها الخارقة الوحش الكامن في الرجل شهريار ... تروضه بما فطرت عليه الأنثى الذكية من دهاء ، ومداورة ، ورقة ، وعطف ، ولين ، حتى يستأنس بها ويعفو عنها ، وعن بنات جنسها .

عندئذ تنتهي حكايات الليالي ...

لا شك عندنا أن تأثير كتاب « ألف ليلة وليلة » بدأ يزول عن المجتمع ، وراحت المرأة تنطلق من القيود التي كبلها بها هذا الكتاب .

أما شخصية شهرزاد ، الأنثى المعطاء ، والوجه المشرق في الحياة فستظل الرمز الخالد للمرأة المنشودة أبد الدهر .

مصادر بحث ألف ليلة وليلة

كتاب ألف ليلة وليلة : طبعة محمد على صبيح ـــ القاهرة .
الموسوعة العربية المبسطة : صفحة ٢٠٣ .
مروج الذهب : المسعودي .
الفهرست : ابن النديم .
نفح الطيب : المقري .
الخطط : المقريزي .
قصة الحضارة : ول ديورانت ، الجزء الثاني ـــ المجلد الرابع .
الحكاية الخرافية : فريدريش فون ديرلاين ، ترجمة الدكتورة نبيلة ابراهيم ـــ القاهرة .
فصول في الأدب : أحمد حسن الزيات ـــ الطبعة الثانية القاهرة .
ألف ليلة وليلة : الدكتورة سهير القلماوي ـــ دار المعارف مصر .

المنتخب من ألف ليلة وليلة : الأستاذ هنري بريس ، الأستاذ مانجيون ــ القاهرة .

حبات زمرد : الشاعر شفيق المعلوف ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ــ دمشق .

مجلة مواقف : العدد ١٦ تموز ــ آب ١٩٧١ ــ بيروت .

الملحق الثقافي لجريدة العلم : العدد (٢٠٥) ٢٧ تموز ١٩٧٣ ــ الرباط .

مقدمة الناشر في ترجمة ماردروس الفرنسية .

سيرة الملك سيف بن ذي يزن

لعل أهم ما نتعرض له حينما نأخذ على أنفسنا دراسة أثر أدبي قديم أو حديث ، هو أن نتعرف قبل كل شيء على البيئة التي نشأ وترعرع فيها . وأن نلم بالأحداث التي واكبته من سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية . ثم نوازن بين ذلك كله لنخلص إلى الدوافع التي أدت إلى ظهور هذا الأثر ، ومن ثمة ردود الفعل المعاكس التي نجمت عنه .

ولعلنا نكون أكثر تقيداً بذلك كله حين نتصدى لدراسة السير الشعبية . لأن هذه السير ذات خطر عظيم بما لها من تأثير كبير على عامة الناس . فهي تنبع من ضمير الشعوب ، وتعبر عن أحلامها ، وأمانيها ، ومتطلباتها ، وتجسد في أبطال قصصها الخياليين ،المُثل التي تفتقدها تلك الشعوب في حكامها الحقيقيين ، أو تتوق إليها في أفرادها العاديين . وهي غالباً مجهولة المؤلف ، قد يتضافر على إبداع الواحدة منها عدد من المؤلفين ، يضيف كل منهم شيئاً ينسجم مع الأصل ، حتى إذا استوت

عملاً كاملاً قيَّض الله له من يدونه ليظل باقياً حسب طاقته الفنية على البقاء .

إن أدبنا العربي حافل بهذه السير . تكاد تكون كلها جامحة الخيال ، سهلة المأخذ ، قد ركَّز مؤلفوها في سردها على عنصر التشويق لتستهوي المتلقين وتجذبهم . كما تفننوا بالمبالغة والغلو في وصف البطولات الخارقة ، والغنى الفاحش ، والبذخ في اللباس ، والطعام والشراب ، وفي كل ما يتوق إليه الشعب المحروم ، لينعم بالخيال بما حرم منه في الواقع .

من أجل هذا كله كانت هذه السير أكثر انتشاراً على الصعيد العام من أي نوع آخر من أنواع الأدب وأكثر قدرة على البقاء .

لقد قلَّ بين عامة الناس من شعبنا من يجهل عنترة العبسي ، وقلائل جداً بين هؤلاء العامة ــ الأميين طبعاً ــ من سمع بالمتنبي ، أو أبي العلاء المعري ، أو الجاحظ مثلاً . وأنى له أن يسمع بهؤلاء ما دام المصدر الوحيد الذي يستقي منه ثقافته الأدبية هو الحكواتي ، والحكواتي لا يخرج عن نطاق هذه السير منذ قديم الزمان . كان هذا قبل انتشار الراديو والتلفزيون .

تؤكد هذه السير الشعبية ما لمؤلفيها من خيال واسع ، وقدرة فائقة على التأليف الروائي ، وعلى ابتكار الأحداث وربطها مع بعضها .

بعض هذه السير ضاع فيما ضاع من تراثنا الأدبي ، وبعضها ما يزال مخطوطات قابعة في المكتبات ، تنتظر اليد الحانية الشفوق لتنفض عنها غبار الزمن ، وتنبش ما فيها من كنوز ، وتخرجها إلى النور . وبعض عفاه الزمن ، ولعله أضعفها ، وبعضها الآخر ما يزال متداولاً إلى يومنا

هذا ، وهو لا شك أميزها كألف ليلة وليلة ، وعنترة العبسي ، وتغريبة بني هلال ، والزير سالم ، وسيف بن ذي يزن التي نحن بصدد دراستها الآن ، وغيرها ، وغيرها .

هذه السيرة ما زالت تطبع وتنشر ويقرأها الناس ، ويقصها (الحكواتية) في المقاهي لا سيما في الأرياف والمدن الصغيرة من وطننا العربي الكبير . ولا نغالي إذا قلنا أنها ما تزال على الصعيد الشعبي الواسع أكثر انتشاراً من أدبنا القديم والحديث ، والأدب المترجم أيضاً . لأن النسخة الواحدة منها يقرأها (الحكواتي) على عدد وفير من الناس سنين طويلة ، ثم يتوارثها عنه غيره ، وعلى الرغم من ذلك ما تزال تطبع إلى الآن فريفنا ما يزال ينسجم مع هذه السير الشعبية التي مر على بعضها أكثر من ستة قرون كسيرة عنترة بن شداد . وأكثر هذه السير كما نعلم يعتمد على الأحلام ، والغيبيات ، والجن ، والسحر ، والكهانة والقوى الخارقة للوصول إلى الهدف من أقرب السبل وأهونها .

هذا كله يدل على أن عقلية العامة من شعبنا ما تزال هي هي منذ القرون الوسطى إلى الآن تتأثر بهذا كله ، وربما تؤمن به أيضاً .

هذه حقيقة نأسف لها كثيراً . أقول ذلك وأنا لست ضد هذه السير الشعبية ، فأنا أحبها ، وأعتز بها ، وأعتبرها ثروة أدبية ذات قيمة كبيرة من تراثنا القديم ، وأقدر ما فيها من فن روائي ، وخيال ورموز ، وأحب أن يستوحيها أدباؤنا وفنانونا ، وأن لا تهمل ، بل تطور ، وتقرأ لكن إلى جانب غيرها من الأدب الذي يعالج مشاكلنا الراهنة .

ترى ألا نستطيع أن نبعث الحكواتي من جديد ما دام لا يزال بيننا

من يستسيغه لا سيما في الأرياف حيث تبلغ نسبة الأمية أكثر من السبعين في المئة ؟ وعندنا قرى لم تصلها الكهرباء بعد ، وإن وصلتها فقلائل الذين يملكون الراديو أو التلفزيون . ويظل (الحكواتي) تسلية دارجة ، نستطيع أن نستغل تأثيره على الجماهير فيما إذا ألفنا له قصصاً مسلية راعينا فيها عنصر التشويق كما فعل مؤلفو السير القدامى ، ومن خلالها نستطيع أن نوجه هذا الجمهور الأمي الجاهل ، ونعالج كثيراً من مشكلاته ، كمأساة زواج الشيخ الكبير من الصبية الصغيرة بالرغم عنها ، وكقضايا الثأر وما ينجم عنها من ضحايا بريئة ، أو خنوع الفلاح التقليدي لموظف الحكومة . إلى آخر ما هنالك من قضايا ومشكلات . ولا شك عندي في أن أذهان هؤلاء الناس تتقبل هذه الأمور من الحكواتي وتنفعل بها أكثر من الوعظ المباشر .

لقد رأيت ذات مرة بأم عيني في مدينة اللاذقية ، منذ سنوات قلائل ، وفي ساحة رئيسية مقهى قد ازدحم فيه الناس ليسمعوا من الحكواتي قصة الزير سالم التي لا تمت إلى مشاكلنا الراهنة بأية صلة . بينما قبع الراديو صامتاً في زاوية المقهى على الرغم من الأغاني والتمثيليات ، والمسلسلات التي يحفل بها . لقد ثبت لي أن الراديو لم يستطع أن يقضي على الحكواتي تماماً ، كما لم تستطع السينما أن تقضي على المسرح لأن بين الحكواتي وجمهوره ، وبين أفراد الجمهور أنفسهم مشاركة حية تعجز الآلة عن تحقيقها . ربما عندما يصل المسرح إلى القرية يستطيع عندئذ أن يقضي على الحكواتي قضاءً تاماً .

إن للحكايات تأثيراً عجيباً على الجمهور . وفي القديم الغابر فطن لهذه الناحية الخليفة القارح معاوية بن أبي سفيان فطلب من أحد أعوانه

أن يجلس في المسجد بعد كل صلاة ويقص على الناس قصصاً عن أيام العرب . ولا شك أنه وجهه حسب مايريد ، وأجرى له راتباً مقابل ذلك .

إن أكثر ما استهواني من سيرنا الشعبية هي قصة سيف بن ذي يزن .. لا لأن هذه السيرة من أجمل السير وأروعها فحسب ، بل لأن لها جذوراً عميقة في نفسي منذ الصغر .

كان لنا عمة عجوز ، أرملة عقيم ، لا شاغل يشغلها ، وكانت من القليلات اللواتي يجدن القراءة في عصرها ، وكانت تقرأ هذه السير ، ثم تعيد قراءتها لتسلي نفسها ، حتى أصبحت مهووسة بها تحفظ أكثرها عن ظهر قلبها . فكانت تجمعنا نحن صغار الأسرة في الليوان أيام الصيف ، وحول المنقل في الشتاء ، لتكف أذانا وضجيجنا عن الكبار . ثم تسألنا أي الحكايات نريد أن تحكيها لنا ؟ فكنا نردد بصوت واحد منغم : سيف بن ذي يزن ، سيف بن ذي يزن فتظل لحظات تنظر إلينا وهي تضحك ، ولا نسكت حتى تبدأ الحكاية . وقد كبرت ، واقتربت من الشباب وظللت متأثرة بهذه السيرة يخيفني المارد عيروض ، والجنية عاقصة ، لا سيما إذا فاجأني البرق والرعد في ظلمة الليل وأنا في أرض الديار كنت أركض إلى أقرب مخدع ، وأوصد الباب خلفي وأنا ألهث خشية أن يداهمني أحدهما . لأن عمتي كانت تصور لنا بكثير من الروعة كيف كانت السماء تبرق وترعد ، وتقوم العواصف عندما يهبط عيروض أو عاقصة من الجو إلى الأرض لينقذ الملك سيف من أعدائه . وإن قدر لي أن أكتب القصة فيما بعد ، فلأن هذه السيرة قد أغنت خيالي منذ الصغر .

لقد حفل دارسو الأدب الشعبي بالآونة الأخيرة بهذه السيرة

فأخرجها الأديب عمر أبو النصر بأسلوب جديد مع المحافظة التامة على الأصل . وأطلق عليها اسم (سيف بن ذي يزن الملك العربي السوبرمان) ولخصها الأديب فاروق خورشيد في جزئين . وقدمت عنها أطروحات للجامعات . وكتبت قصصا للأطفال ، وأخرجت في مسلسلات إذاعية . وكتب عنها دراسات كثيرة في الكتب التي تعنى بالأدب الشعبي .

إن ما وصلنا من هذه السيرة يقع في أربعة أجزاء ويحتوي على ما يزيد عن الألف صفحة، فهي إذاً قصة ضخمة ولو طبعت على النسق الجديد للطباعة لزادت صفحاتها أضعافاً عما هي عليه في الطباعة القديمة .

اتفق دارسو هذه السيرة على أنها دونت في مصر ، وفي القاهرة بالذات في أواخر القرن الرابع عشر ، وأوائل الخامس عشر وحجتهم على ذلك مقنعة . وهي أن بعض أحداث السيرة وقعت فعلاً في أواخر القرن الرابع عشر . وقد سجلها التاريخ ، كالحروب التي وقعت بين مصر ، والحبشة ، أيام الملك (سيف أرعد) ملك الحبشة ، الذي كان له دور كبير في سياق السيرة الشعبية يواكبها من أولها إلى آخرها . وإن كان مؤلفو السيرة لا يتقيدون بالزمن التاريخي ، بل يختارون للسيرة زمناً موغلاً في قدمه أي إلى ما قبل الأديان السماوية ، ولكن لا يمكن أن تكون السيرة قد دونت قبل الملك (سيف أرعد) كذلك نجد أسماء بعض الشخصيات والأماكن التي تشير إلى مواضع أكثرها في القاهرة .

ونعتقد أيضاً أن اللغة التي كتبت بها السيرة تدل على ذلك العصر فقد كتبت بلغة فصحى منمقة مسجعة ، تسف أحياناً فلا تراعي قواعد

اللغة ، وتتخللها العامية المصرية المحكية في ذلك العصر والمطعمة بكثير من الكلمات الأعجمية .

★ ★ ★

قبل أن نتعرف على السيرة الشعبية ، والسيرة التاريخية للملك سيف بن ذي يزن يجب أن نلقي نظرة عجلى على الأحداث التي واكبت السيرة الشعبية ، والتي كانت دافعاً لظهورها .

ظل الشعب العربي فترة طويلة بعد الحروب الصليبية ، ثم غزو التتار سادراً في همومه ومآسيه ، ما يكاد يلملم جراحاته ، ويثوب إلى نفسه ، حتى تتفتق له جراحات جديدة من جراء الفتن الداخلية التي ما كانت لتهدأ حتى تثور من جديد ، وتصب ويلاتها على الشعب ، وقد تكون أشد وطأةً عليه من الغزو الخارجي .

ثم راح الشعب يصحو على حقيقة مروعة !...

لقد تقلص الحكم العربي عن الأرض التي فتحها الأجداد وأراقوا عليها دماءهم ، وانزوى هزيلاً في اليمن ،والحجاز ، وفي بقعة من أفريقيا في ـــ مراكش ـــ . وهو في الأندلس في النزع الأخير .

وتقاسم الإمبراطورية العربية الواسعة الأطراف ، الأتراك ، والمماليك ، والعجم والإسبان .

والغريب في الأمر أن هؤلاء الحكام الشعوبيين الذين أبلوا بلاءً طيباً في الحروب الصليبية ، والتف حولهم الشعب ، واعتز بهم كمسلمين ، ومدحهم الشعراء ، وألفت لهم السير الشعبية التي تمجد بطولاتهم كسيرة ـــ الظاهر بيبرس ـــ ما لبثوا حين استقر لهم الحكم أن انقلبوا على

الشعب ، وراحوا يسومونه الذل والعذاب ، فإذا هو معزول عن السلطة ، تفرض عليه الأحكام بحد السيف ، وليس أمامه إلا أن يطيع صاغراً ذليلاً .

يقول أحمد أمين في كتابه ظهر الإسلام :

« في عهد المماليك نحّي العرب عن السياسة والجندية فانصرفوا إلى الزراعة والصناعة وكسب العيش » .

كان لا بد أن يؤثر هذا الوضع على حالتهم النفسية فيستكينوا إلى الخنوع . وقبل ذلك بقرون بعيدة قال شاعر الحكمة :

وإنما الناس بالملوك فما تفلح عرب ملوكها عجم

أما الوضع الإقتصادي فلم يكن خيراً من الوضع السياسي . فعلى الرغم من رواج التجارة ، وتقدم الصناعة والزراعة كان الشعب يشكو الفقر ، وكان الغنى محصوراً في فئة دون فئة . في طبقة الحكام ومن يلوذ بهم ، شأن الحكم الإقطاعي في العصور جميعها ، فارتفعت الضرائب ، واستنزفت أموال الشعب ، وكثرت مصادرات الأموال من قبل الحكام دون مبرر . فعاش الشعب في ذل ، وفقر ، وكبت .

أما الوضع الإجتماعي ، فكان الشعب يرزح تحت عبء التعصب الديني ، والتعصب السياسي لفئة دون فئة . كما اكتسب تقاليد وعادات جديدة حملها إليه الشعوبيون من شتى الأقاليم قد لاتتناسب مع أصالته وعراقته ، فانعزلت المرأة في بيتها ، إن كان هناك مكانة لإمرأة ، فللجواري قبل الحرائر . ولاذ الأدباء ، والعلماء ، وأهل الفكر ببلاطات السلاطين ، والحكام في سبيل لقمة العيش ، والإبقاء على النفس . وساد النفاق ، والمداهنة، واللصوصية ، والرشاوى ، والكدية ، وانحراف الأخلاق .

ومن كان فيه بقية من ضمير التجأ إلى التصوف يلوذ به ... حتى التصوف أصبح عند بعض المتصوفة لا مبالاة ، وشحاذة أكثر منه عقيدة . وفي أحسن حالاته كان حضاً على الصبر والجلد لاحتمال الوضع الذي لا يحتمل ، وباعثاً على الهدوء النفسي ريثما يأتي الفرج من الله مدبر الأكوان . كما كان يقول متصوفة ذاك الزمان .

من جراء ذلك كله نما في النفوس توق ، وتلهف شديدان لبطل عربي أصيل ، ينتصر على الدخلاء ويعيد إلى الشعب العربي حقوقه المسلوبة ، وأمجاده الغابرة . ثم ينقذه من القهر والذل والفقر .

ولن يأتي هذا البطل المنقذ إلا بصورة ملك حسب مفاهيم ذلك العصر ، عصر الملوك .

ولما كان الشعب المنهار أعجز من أن ينجب هذا الملك المنقذ راح يحلم به ، يتخيله كما يتمناه ، يحوك حوله الأساطير ، ويرمز إليه في الحكايات ، خشية بطش الحكام ، فيجد في ذلك كله متنفساً لكبته الطويل ، ويوغل في الأحلام لينعم بالراحة المؤقتة المشوبة بالمرارة والخيبة .

يقول الأستاذ « جوزيف كامبل » وهو من أبرز علماء الميثولوجيا المعاصرين :

« إن الأسطورة حلم جماعي . بينما الحلم أسطورة ذاتية . فالأسطورة حافلة تصل بين العقل الواعي ، والعقل الباطن . »

الأسطورة إذن حلم الجماعات .

والأحلام ـــ إن كانت لأفراد وجماعات ـــ ما هي إلا عالم ضعف

وتخاذل ، وكبت ، وانفلات من واقع غير مرضي عنه إلى عالم خيالي يتوفر فيه ما تتوق إليه النفس من أمنيات عسيرة أو مستحيلة .

في اعتقادي أن سيرة الملك سيف بن ذي يزن بدأت أسطورة ينفس بها الشعب كبته . أسطورة البطل المنقذ .

ثم تنبه لهذه الأسطورة قاص ذكي ماهر فوجدها تصلح نواة لتبنى عليها سيرة . ثم جاء بعده مؤلفون آخرون أضافوا إليها ما أضافوا حتى أصبحت تلك السيرة الضخمة .

وكان لا بد لتكون السيرة أقرب إلى الواقع من إعطاء بطلها إسم شخصية ذات مكانة سامية في التاريخ ، قد عرفت عنها صفات مماثلة لصفات بطل السيرة ،كالشجاعة الخارقة ، والعدل ، والانتصار على الدخلاء ، وطردهم من أرض الوطن ، ليكون لها تأثير كبير على العقول التي تتلهف أشد التلهف إلى مثل تلك الشخصية .

وفي اعتقادي أن هذا القاص الذكي راح يجوب التاريخ عله يعثر على هذا البطل الخيالي الذي يستهوي أفئدة العرب جميعاً على اختلاف شيعهم ، ومللهم .

ويبدو أنه فكر طويلاً فرأى أنه لا يستطيع أن يختاره من الخلفاء الراشدين لأن لسيرهم قدسية دينية لا يجوز أن يلعب بها القصاصون كما لعبت قصص ألف ليلة وليلة بسيرة الرشيد والمأمون وغيرهما من الخلفاء والسلاطين .

كذلك لا يستطيع أن يختاره من الأمويين على الرغم من تعصبهم للعروبة ، وبطولاتهم ، وفتوحاتهم المجيدة لأن بينهم وبين الشيعة ضغائن

وأحقاداً لم يمحها الزمن بل كان يزيدها عمقاً وتهويلاً . والقاص يتوخى الشخصية العربية التي أجمع العرب على حبها على اختلاف مللهم .

ولم يستطع أن يأخذه من العباسيين لأنهم وقعوا فيما وقع فيه الأمويون من خلافات مع الشيعة ومع الأمويين أيضاً ، عدا ذلك فقد أثبت العباسيون فشلهم السياسي حين استوزروا الشعوبيين وجعلوا منهم قواداً وحجاباً . ثم تركوا لهم سياسة الدولة . فإذا استشرى أمرهم بطش بهم الخلفاء . فيستكين هؤلاء الشعوبيون قليلاً وهم يترصدون الفرص فإذا وجدوا ثغرة نفذوا منها إلى الحكم وعادوا أكثر استشراءً مما كانوا عليه . وقد استمر هذا الوضع منذ العصر الذهبي للعباسيين حتى أفول نجمهم على يد التتار والأتراك . ولم ينج الفاطميون مما وقع فيه العباسيون حتى حكمهم آخر الأمر مماليكهم وجواريهم . ولم يكن الحال في الأندلس خيراً منه في المشرق لا سيما حين أخذ ملوك الطوائف يتحالفون مع الأعداء ضد بعضهم بعضاً .

وأخيراً يعثر القاص على ضالته المنشودة ، يجدها في شخصية عربية قوية جذابة هي شخصية الملك سيف بن ذي يزن التبعي الحميري اليماني . ملك من أقحاح العرب قبل الإسلام . أبلى بلاءً حسناً في طرد الأحباش الغزاة من بلاده . ومدحه الشعراء ، ومنهم أمية بن أبي الصلت ، وفد عليه لما طرد الأحباش من بلاده ومدحه بقصيدة مطلعها :

لا تطلب الثأر إلا كابن ذي يزن
إن خيّم البحر للأعداء أحوالا

فهو إذا خير من يثأر للأمة العربية من حكامها الشعوبيين العتاة ،

وعدا هذا كله كان اختياره بطلاً للسيرة التي بدأت أسطورة مناسباً جداً . لأنه نشبت في تلك الحقبة حرب على حدود مصر بين الأحباش والعرب في زمن الملك الحبشي (سيف أرعد) قد يُظن أن سيرة الملك سيف وحربه مع الأحباش في القديم الغابر يرمزان إلى تلك الحرب . وبذلك تنجو السيرة من نقمة الحكام الشعوبيين الذين أصبحوا لا يطيقون التغني بالبطولات والأمجاد العربية المعاصرة آنذاك .

إن شخصية الملك سيف لقية فريدة يمكن أن تضفي على السيرة الشعبية بطولة ومهابة تبزان البطولات الشعوبية كلها التي أبلت في محاربة الصليبيين والتتار .

إن سيرة الملك سيف التاريخية التي روتها كتب التاريخ والأدب ، كالطبري ، وابن الأثير ، وابن هشام ، ونهاية الأرب في أخبار العرب وغيرها ، لا تقل روعة عن أجمل الأساطير وأعذبها .

لا بد أن نوجز القصة التاريخية لنقارن بينها وبين الأسطورة التي أبدعها الشعب ، ثم تلقفها القصاصون وجعلوا منها سيرة كبيرة ألبسوها للملك العربي سيف بن ذي يزن على سبيل المفاخرة بين العرب والشعوبيين ، وهي في الواقع لا تمت إلى قصته التاريخية الحقيقية إلا بأسباب واهية .

قصة سيف بن ذي يزن التاريخية *

اعتنق ملك اليمن ذو نواس الديانة اليهودية ، وتعصب لها أشد التعصب . حتى أراد أن يفرضها على شعبه كله . وذات يوم جاءه يهودي من نجران ــ كان أهل نجران مسيحيين ــ وادعى أن نصارى نجران قتلوا ابنيه ظلماً . واستنصر ذا نواس عليهم ، وبكى واستبكى كعادة اليهود في إذكاء الفتن . فحمي ذو نواس واستجاب لدعوى اليهودي وغزا أهل نجران ، وخيرهم بين القتل واعتناق اليهودية . فاختاروا القتل !... فأمر أن يحفر لهم أخدود وأن يلقى فيه نصارى نجران وتوقد فيهم النار ،. وهم أصحاب الأخدود الذين حدث عنهم القرآن الكريم .

ويعود ذو نواس إلى صنعاء . وينجو رجل نصراني من أهل نجران

---

* لسنا بصدد تقييم تاريخي لقصة الملك سيف بن ذي يزن ، ولكننا نجمل آراء أكثر المؤرخين العرب ، تلك الآراء التي استلهمها مؤلفو السيرة وبنوا عليها سيرتهم كما نعتقد .

فيشد الرحال إلى رومة حامية المسيحية ليستنصر قيصرها على ذي نواس الذي قتل النصارى شر قتلة . فيقول له قيصر رومة :

لقد بعدت بلادك عن بلادنا ونأت عنها . ولكني سأكتب إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين آمره أن ينصركم على عدوكم ويثأر لكم .

ويستجيب ملك الحبشة لأمر القيصر فيجهز جيشاً كبيراً ويرسله إلى اليمن تحت قيادة ــ أرياط ــ أبرز القادة الأحباش .

ولم يستطع ذو نواس أن يواجه هذا الجيش الكبير فانهزم أمامه شر هزيمة ، وما كان منه إلا أن ركب حصانه واقتحم البحر منتحراً ، مؤثراً الموت على ذل الأسر .

ويستتب الأمر للأحباش في اليمن . وما تمضي مدة قصيرة حتى يتنازع في اليمن إثنان من الأحباش على الحكم . القائد أرياط مع أبرهة أحد البارزين في الجيش الحبشي . ويُقتل أرياط ، وينفرد أبرهة بالحكم . ويبلغ الخبر النجاشي ملك الحبشة . فيغضب على أبرهة ، ثم يعفو عنه ، ويقره على حكم بلاد اليمن . ويستقيم الأمر لأبرهة في اليمن فيذل أهل اليمن ، ويستبيح أموالهم ونساءهم .

وتروق لأبرهة إمرأة جميلة فينتزعها من زوجها ويتزوجها . وكانت المرأة من أشراف بلدها ، هي ــ ريحانة ابنة ذي جدن وزوجة ذي يزن من أشراف اليمن أيضاً ــ وبعض الكتب التاريخية تؤكد أن ذا يزن هذا هو ابن ذي نواس نفسه . والوارث الشرعي لعرش اليمن . وقد نزح عن وطنه بعد الهزيمة . وكان له من زوجته ريحانة إبن اسمه سيف اصطحبته أمه معها حين تزوجها أبرهة ، فنشأ الفتى في حجر أبرهة ولما وعي ظن

أن أبرهة أبوه . ولم يعرف أن أبرهة فاتح بلده ، وقاتل جده ، ومستبيح أمه ، ومشرد أبيه . ويكبر الفتى ويشب عن الطوق . وذات يوم يختلف مع أحد أولاد أبرهة فيروح هذا يسب أبا سيف ويلعنه أمام الناس غير متورع ، مما نبه سيف إلى أنه ليس ابن أبرهة . ويدخل على أمه مغموماً مقهوراً يسألها عن صحة نسبه . وما يزال بها حتى تعترف له بالحقيقة .

لم يقنط الفتى سليل التبابعة ، ولم يحطمه اليأس وهو الذي لا حول له ولا طول ، بل عزم عزم أهل المروءة والشهامة على تحرير بلاده ، وطرد الدخلاء منها . ولو كان هو ربيب هؤلاء الدخلاء .

وفي رواية أخرى وردت في كتاب (نهاية الأرب في أخبار العرب) تقول :

أن أهل اليمن اجتمعوا إلى سيف بن ذي يزن الحميري وقالوا له : إن الحبشة قد دخلوا بلادنا بسبب جدك ذي نواس ، وقد طال بلاؤهم علينا حتى ضاقت صدورنا عنه ، ورأينا أن نجمع لك من النفقة ما يجهزك إلى بعض الملوك تستنجده ،لعلك تُقبل بجنود تقاتل هؤلاء الحبشة بهم ، فينقذنا الله بك وعلى يدك من ملكهم .

ويذهب الفتى إلى قيصر رومة يستنصره ، فلم يأبه له ولم يستمع إلى شكواه . فيخرج من لدنه مقهوراً ، ولكنه أشد عزيمة .

ويجيء بلاد العجم ليستنصر كسرى على أعدائه ، وهناك يجتمع بأبيه ذي يزن الذي كان هناك منذ سنين طويلة يحاول أن يستعين بكسرى على طرد الغاصبين من أرضه فلا يفوز منه بطائل ، حتى يموت على أبواب

كسرى . مما جرأ ابنه سيف ـــ كما ورد في الطبري ـــ أن يعترض كسرى وقد ركب ليقول له :

أيها الملك إن لي عندك ميراثاً .

ويدعوه كسرى عندما ينزل ويقول له :

من أنت أيها الفتى ؟ وما ميراثك ؟

فيقول له :

أنا ابن الشيخ اليماني ـــ ذي يزن ـــ الذي وعدته أن تنصره ، فمات ببابك ، وحضرتك . فتلك العدة حق لي وميراث .

ويرق له كسرى ويأمر له بمال . فيخرج الفتى الأبي من لدنه حانقاً ، ينثر المال الذي وهبه له كسرى يميناً وشمالاً فينتهبه الناس ، مما يثير غضب كسرى عندما يبلغه خبر ذلك . فيرسل إلى الفتى يسأله : لم صنع ما صنع ؟ فيقول له : لم آتك للمال ، وإنما جئتك للرجال ، ولتمنعني الذل .

ويُعجب كسرى بشجاعة الفتى فيجمع وزراءه يستشيرهم في أمره . ويشير عليه أحدهم قائلاً :

إن في سجون الملك رجالاً ذوي بأس ونجدة ، فلو أن الملك وجههم مع هذا الفتى الموتور . فإن أصابوا ظفراً كان له . وإن هلكوا كان قد استراح وأراح أهل مملكته منهم . ويقول كسرى : هذا هو الرأي .

ويأمر أن يحصوا من في السجون من الرجال الأشداء فيبلغوا ثمانمائة نفر فيجعل عليهم قائداً من قواده ويرسلهم مع سيف بن ذي يزن .

ويكتب لهذا الجيش أن ينتصر . وقد أبدى سيف في الحرب شجاعة خارقة أثارت إعجاب القائد الفارسي فيكتب هذا إلى كسرى يحدثه عن بطولة سيف وشجاعته . فيقر كسرى سيفاً ملكاً على اليمن . وبذلك يستعيد سيف ملك آبائه ، ويحكم شعبه بالعدل فيحبه الشعب ويتفانى بحبه ، ويتغنى بأمجاده .

ولكن ذلك لم يدم طويلاً ، فقد اغتاله الأحباش . وكان قد اتخذ منهم جمازين وخولة . فبكته قبائل اليمن وحزنت عليه أشد الحزن ، ورثاه الشعراء ، وقد وضعوا في جدثه لوحاً نظموا فيه أحداث حياته وانتصاراته كلها في قصيدة مروية عن لسانه .

وقد ورد وصف الملك سيف في كتاب « نهاية الأرب في أخبار العرب » يقول :

كان الملك سيف جميل المنظر ، عظيم الهيبة ، عالى الهمة ، شديد البأس ، كريم الأخلاق ، حسن التدبير .

السيرة والأسطورة

إن سيرة الملك سيف الشعبية أشبه ما تكون بأسطورة « أوديب الملك » التي وضعها « سوفوكليس » اليوناني .

أسطورة الطفل الذي يُتنبأ له أنه سيقضي على أبيه أو متبنيه ليتسلم الحكم بعده ، فيلقى بهذا الطفل إلى المهالك للتخلص منه ، لكنه يتغلب على الصعاب بفضل قوته الجسدية الخارقة ، ويحقق النبوءة .

فسيرة الملك سيف الشعبية التي بدأت كما نعتقد أسطورة ينفس بها الشعب كبته ، هي إذاً من الأساطير المهاجرة التي يتغير بعض من ملامحها حسب الجو الجديد الذي تتأقلم فيه .

فكما يدفع الملك « لايوس » طفله « أوديب » إلى راع ليقتله خشية النبوءة التي تقول أن الطفل سيقتل أباه ، ويتزوج من أمه . ويشفق الراعي على الطفل فيعطيه لراع من بلد آخر ، ويحمله هذا إلى ملكه

فيعجب الملك بالطفل ويتبناه . ثم يكبر الطفل وتسوقه المصادفات لأن يقتل أباه ويتزوج من أمه . ويحقق النبوءة .

كذلك نجد الملكة « قمرية » أم الملك سيف تحمل ابنها ــ كما ورد في السيرة ــ وتلقيه بواد موحش خشية أن ينتزع منها الملك حين يكبر حسب وصية أبيه . ويعثر على الطفل صياد فقير يحمله إلى الملك(أفراح) الحبشي وهناك يراه « سقرديون » حكيم الملك فيتنبأ له بأن الطفل عندما يكبر سيصبح ملكاً وينتصر هو وقومه العرب على الحبشة ، وسيقضي على عبادة النجم « زحل » فيها لينشر دين الإسلام في الحبشة .

ويروح الحكيم « سقرديون » يعمل مع أخيه « سقرديوس » حكيم الملك الحبشي « سيف أرعد » على تدبير المهالك للطفل ولكنه يتغلب عليها ويحقق النبوءة . أي يستولي على الحبشة ، وينشر فيها دين الإسلام ، وينتزع الملك من أمه ، بعد أن ظلت تكيد له ، وتعمل على قتله ، وفي كل مرة كان يعفو عنها إلى أن قتلتها الجنية عاقصة أخت الملك سيف بالرضاع . رمت بها من شاهق فتلقاها زوجات الملك سيف بسيوفهن فماتت شر ميتة .

لا شك أن الشبه واضح بين الأسطورتين إلى حد كبير . ولو كان هناك اختلاف في نهايتهما . هذا الإختلاف يحدث دائماً في الأساطير المهاجرة حسب الغايات التي تتلاءم معها .

السيرة الشعبية للملك سيف

يخرج ملك اليمن « ذو يزن » سليل التبابعة مع جيش كبير من بلده يجوب البلاد ليرى هل هناك ملكاً أعز منه وأمنع . وتهابه الملوك ويخشون بطشه ، فيسعون إلى مداراته وخطب وده . ويتناهى خبره إلى ملك الحبشة « سيف أرعد » وتصف السيرة هذا الملك فتقول :

سُمي أرعد لأن له صوتاً كالرعد إذا رعد . كان جباراً عنيداً ، وشيطاناً مريداً ، لايُصطلى له بنار ، ولا يُعدى له على جار وإذا تكلم ترتعد القلوب من هيبته ، وتخافه من كبر جثته .

ويخشى هذا الملك المهول بطش الملك العربي ، فيتشاور مع وزيره ، وينتهي بهما الرأي إلى أن يلجأا إلى الحيلة ليتخلصا من « ذي يزن » فيعد الملك « سيف أرعد » هدية ثمينة ، ويكتب رسالة لطيفة يخطب فيها ود « ذي يزن » ويرسلهما مع جارية من جواريه اسمها « قمرية » بارعة الجمال ، حادة الذكاء . ويوعز إليها أن تغري الملك « ذي يزن » فإذا وقع

في حبائلها تدس له السم في غفلة منه . فإذا نجحت في القضاء عليه سيجزيها سيدها « سيف أرعد » أحسن الجزاء .

وما يكاد الملك « ذو يزن » يرى الجارية « قمرية » حتى تملك عليه قلبه وعقله ، ويقرر أن يتزوجها ليرفعها إلى مصاف الحرائر ويجعل منها ملكة عزيزة الجانب .

ويبتسم الحظ للجارية التي أصبحت ملكة فتحمل من الملك . ولما يعلم الملك بذلك يفرح أشد الفرح . ولكن المرض يداهمه على حين غفلة ، ربما من السم الذي كانت تدسه له زوجه « قمرية » ويشعر بدنو أجله فيجمع وزراءه وقواده ويبلغهم أنه أوصى بالملك من بعده لزوجه الملكة قمرية على أن تظل على العرش حتى يكبر الولد الذي ستنجبه ، وعندما يبلغ رشده يتسلم الملك من أمه .

ويموت الملك « ذو يزن » فيبكيه وزراؤه ، وأهل مملكته ، ويحرصون على تنفيذ وصيته إكراماً له ، وحباً به . فيملكون عليهم زوجه قمرية .

كانت قمرية ذات قدرة عجيبة على إدارة الملك ، تعرف كيف تدبر أمور مملكتها بحزم ودراية يعجز عنهما الرجال ، ولم تلبث أن تناست مولاها الملك سيف أرعد الذي راح يحاول أن يضم مملكتها إلى ملكه . فلم تأبه لرسله وتهديده ، وقد أصبحت ملكة لا تقل عنه هيبة وعزة .

ولما تضع حملها يداهمها خوف شديد من وليدها ، وتخشى أن يكبر وينتزع منها الملك حسب وصية أبيه . ويصعب على الجارية التي أصبحت

ملكة ، وذاقت حلاوة الحكم أن تفلت منها السلطة ، وكان حبها للسلطة والحكم أعنف من حبها لوليدها .

وتتداول الملكة قمرية مع دايتها التي تثق بها وتفضي إليها بما يدور في نفسها من مخاوف ، وتتفق معها على التخلص من الطفل .

وذات ليلة مظلمة تحملان الطفل ، وتخرجان من القصر متنكرتين وتسيران حتى تتجاوزا المدينة وتصلا إلى واد موحش . هناك تلقي قمرية ولدها سيف ولما يتجاوز الأربعين يوماً من عمره . بعد أن تزوده بكيس فيه ألف دينار ، وعقد من الجوهر تضعهما بين لفائفه . وتعود مع دايتها إلى قصرها مرتاحة البال ، مطمئنة النفس .

ولما أصبح الصباح راحت تدعي أمام وزرائها وأهل مملكتها أن الطفل قد خطف أثناء الليل من غرفته دون أن يشعر به أحد من الخدم ، وتتظاهر أمامهم بالحزن واللوعة .

ويخرج الجند والشرط يبحثون عن الطفل فلا يعثرون له على أثر . وتمر بالوادي الموحش ملكة جنية اعتادت أن تتنزه فيه فترى الطفل يبكي وحيداً تحت ظل شجرة ، وكان لها بنت صغيرة في مثل عمر الطفل فتحن إليه وتأخذه إلى حجرها وتهدهده ، وترضعه حتى إذا شبع وغرق في النوم أعادته إلى مكانه تحت ظل الشجرة . ثم تطير محلقة في الجو لتعود إلى قصرها في جبل القمر عند منابع النيل . وتحدث زوجها الملك الأبيض بخبر الطفل ، فيلومها أشد اللوم لأنها تركت الطفل وحيداً في الوادي الموحش وكان الملك الأبيض من الجن المسلمين الطيبين ويقول لزوجته :

يجب أن تأتي بهذا الطفل ليربى بيننا بعد أن أصبح ابننا بالرضاع

وأخا بنتنا الوحيدة عاقصة . عسى أن يجعل الله لنا فيه خيراً ، ولو كان من بني الأنس .

وتعد الملكة الجنية زوجها بأن تأتي بالطفل مهما كلف الأمر .

ويمر بالوادي صياد فقير يرى الطفل نائماً تحت ظل الشجرة فيحمله إلى الملك(أفراح)الذي ما يكاد يراه حتى يحبه ، ويأخذه إلى حجره يتأمله فإذا على خد الطفل شامة خضراء تزيده جمالاً فيشغف به أشد الشغف ويقول للصياد : خذ أنت كيس الدنانير وانصرف . أما عقد الجوهر فهو من حق الطفل الذي سأربيه أنا وأتبناه .

ويشاء القدر أن تلد زوجة الملك في ذلك اليوم نفسه بنتاً جميلة يفرح بها الملك ، ويضعها إلى جانب الطفل الذي جاء به الصياد ، ويتأملهما معاً ثم يقول للحكيم سقرديون :

ــ أنظر أيها الحكيم أليس غريباً أن يكون للطفلة شامة خضراء على خدها كتلك التي على خد الطفل تماماً ؟ لذا سأسميها شامة ، وسأسمي الغلام وحش الفلا ، لأنه وجد في الفلا كصغار الوحوش .

عندئذ يحملق الحكيم مندهشاً في الطفل ، والطفلة ، كمن يتذكر شيئاً هاماً كان قد غاب عنه ، ثم يروح يلطم خديه وينتف لحيته ويقول للملك :

ــ حذار أيها الملك من شر اجتماع هاتين الشامتين لقد قرأت في كتبنا القديمة أنه إذا اجتمعتا على وسادة واحدة قضي على عبادة النجم زحل في الحبشة ، وانتصرت العرب على الحبشة ، فإما أن تقتل الغلام ، أو تقتل ابنتك ، لنتفادى الكارثة .

فيسخر منه الملك ويقول له :

ــ أمجنون أنت أيها الحكيم ؟ أتطلب مني أن أقتل ابنتي ، أو أقتل هذا الطفل البريء لأنك قرأت في كتبك ما قرأت ؟ ؟ سنكتفي بأن نفرق بينهما ما استطعنا .

ويأمر أن تفرد للغلام غرفة خارج القصر ويخصص له مرضعة وحاضنة وخدماً ، لكن الطفل يخطف في نفس اليوم ، ويحزن الملك(أفراح) على الطفل ، ويرسل الخدم يبحثون عنه فلا يعثرون له على أثر .

كانت قد خطفته الملكة الجنية كما طلب منها زوجها . وتظل ترضعه مع ابنتها عاقصة وترعاهما معاً ، حتى يكبرا وكأنهما شقيقان . وذات يوم يقول الملك الأبيض لزوجه بعد أن مضى على الغلام ثلاث سنوات في رعايتهما :

ــ يبدو لي من تصرفات هذا الغلام ، وذكائه ، وتفتحه المبكر ، أنه قد أُعد لأمر عظيم بين جماعة الإنس . فيجب أن نعيده إلى الملك(أفراح) ليتاح له أن يحقق ما كتب له في لوح القدر .

وتعيده الجنية إلى قصر الملك (أفراح)، ويراه الخدم فيسرعون إلى الملك يبشرونه بعودة الغلام وحش الفلا بعد غياب ثلاث سنوات . فيفرح الملك كثيراً ويكتئب الحكيم سقرديون وتعاوده وساوسه ومخاوفه من أن تتحقق النبوءة على يد الغلام وحش الفلا .

ولما يبلغ السابعة من عمره يدفعه الملك(أفراح) إلى فارس مغوار من فرسانه ليعلمه الفروسية ، هو عطمطم خراق الشجر . وسمي خراق الشجر لأنه كان أثناء مرانه على الفروسية يضرب الأشجار الضخمة بحربته

فيخرقها . وكان خراق الشجر هذا يعيش في قلعة تحيطها غابة كبيرة من الأشجار الضخمة .

وما يبلغ وحش الفلا الخامسة عشرة من عمره حتى يفوق مدربه في فنون الحرب والفروسية وخرق الشجر ، مما يثير حسد المدرب وغيظه حتى لم يعد يطيق النظر إلى الغلام . فيطرده ذات يوم من قلعته قائلاً له :

نحن لا نعرف لك أباً ولا أماً ، وربما صدقت نبوءة حكيمنا سقرديون فيكون على يدك خراب ملكنا ، وزوال ديننا ، فاذهب من أرضنا ولا ترنا بعد اليوم وجهك .

ويخرج وحش الفلا من قلعة عطمطم خراق الشجر حزيناً كئيباً ، يهيم وحيداً في البراري والقفار . لا يدري لماذا انقلب عليه اليوم من كان يحبه بالأمس .

كان هذا منطق السيرة .

لقد واكبنا البطل منذ ولادته حتى بلغ أشده ، وتمرس بفنون الحرب والقتال حتى فاق مدربه . ومن ثمة تبدأ مغامراته .

كان أعداؤه يعدون له المهالك وفي طليعتهم أمه قمرية لا سيما بعد أن يتعارفا ، ثم ملك الحبشة سيف أرعد عدوه اللدود ، وعدو أبيه من قبله . ثم الحكيمان الشقيقان سقرديون وسقرديوس اللذان قرأا في كتب الكهانة أن العرب سينتصرون على الحبشة بفضل هذا الغلام الذي ينتشر على يده دين الإسلام ويقضي على عبادة النجم زحل . فراحوا جميعهم يدبرون له المهالك . لكن الفتى كان دائماً يتغلب على تدابيرهم ، وفي كل مغامرة يقوم بها يوشك أن يهلك فلا يبقى بينه وبين الموت إلا شعرة .

وقد يمسك المتلقون أنفاسهم خشية عليه ، وفي اللحظة الأخيرة يأتيه الإنقاذ ، إما من الخضر أبي العباس ، أو من خادمه عيروض ابن الملك الأحمر ، أو من أخته بالرضاع الجنية عاقصة بنت الملك الأبيض . وما يكاد ينقذ من موت شنيع حتى يعود للكفاح من جديد أكثر اندفاعاً من ذي قبل . ولا بد له أن يفوز في كل مغامرة يقوم بها بأداة سحرية من أدوات الحرب ، أوكنز ثمين كان مرصوداً على اسمه ، أو زوجة جميلة تقع في حبه ويقع في حبها ، وهي دائماً ابنة أحد الملوك أو الكهان الذين يحاربهم وينتصر عليهم .

المغامرات الأولى في السيرة تكاد تكون كلها تخص شخص الملك سيف ، يحدوه على خوضها حب الإستطلاع والمعرفة ، وأكثرها يدور حول الفروسية والحب . قطبي الرجولة منذ الأزل ، وإلى الأبد .

ولما يتعرف الفتى خلال هذه المغامرات على شخصيته ، ونسبه وبعض زوجاته ، وأخته الجنية عاقصة ، وخادمه عيروض المرصود لخدمته . ثم أمه قمرية التي لا يشفى غليلها منه حتى تموت . تبدأ مغامرته لنشر الرسالة التي أعده القدر لها . فينشر دين الإسلام بين أهل الكفر والمحن ، كما تسميهم السيرة ، ويستعيد عرش آبائه ، ويرفع شأن أمته .

كان يدعى وحش الفلا ، لا يعرف له أم ولا أب ، فإذا هو سليل الملوك التبابعة ، ملوك اليمن كما يثبت له الشيخ جياد الذي مد الله بعمره حتى يجتمع بالملك سيف بصومعته المنعزلة على رأس جبل ، ويهديه إلى دين ابراهيم الخليل ، الدين الذي يتنبأ بمجيء محمد بن عبد الله صلعم .

فيعلمه أن يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن ابراهيم خليل الله ، وأن محمداً رسول الله .

يبدو أن مؤلفي السيرة لم يشأوا أن يتعرضوا لليهودية ، أو المسيحية ، وكأنهم قد سئموا الصراع بين المسيحية والإسلام . الصراع الذي أبلى به الشعوبيون فجاؤوا ببطل عربي يفوقهم جميعاً وذهبوا بالقصة بعيداً جداً ، إلى ما قبل الأديان السماوية ، وجعلوا بطلها يبشر بمجيء محمد صلعم منذ ذلك الحين ، ويدعو إلى دين ابراهيم الخليل الذي يسميه دين العرب فيحارب البطل من أجل نشر هذا الدين عبدة النار والأوثان والنجوم ، والسحرة ، والكهان والجان . تسوقه إلى بلادهم مناسبات غريبة يبدع القاص في خلقها وحبكها ، ويخرج البطل من حروبه ظافراً منتصراً دائماً . فمن يسلم من الملوك الذين يحاربهم مع رعيته يقره على ملكه . لأن لا غاية للبطل من الحروب سوى نشر الدين . وكان بعض الملوك بعد أن يعتنق الإسلام يندفع مع جيشه ليعمل مع الملك سيف في نشر الرسالة . ومن يأبى الإسلام ويتعنت يكون نصيبه القتل .

تظل المغامرات والحروب ديدن الملك سيف ، فإذا كبر وسئم النزال والطعان ، وإدارة الملك ، بعد أن أبلى في ذلك كله أحسن البلاء . يستشير أستاذه الخضر أبا العباس . فيشير عليه هذا أن يعتزل في جبل ، ويفرغ إلى عبادته ، فقد أدى رسالته على أكمل وجه .

كأن القاص قد عز عليه أن يميت هذا البطل الخارق ، كما جرت العادة في نهايات السير والحكايات ، فآثر أن يدعنا نتخيل النهاية المحتومة على الكائنات كلها .

وقبل أن يعتزل الملك سيف يقسم مملكته بين ابنيه الأثيرين . ابنه مصر وابنه دمر . فيملّك ابنه مصر على بلاد مصر ، ويملّك دمر على بلاد الشام . فتلوح بوادر فكرة الوحدة بين القطرين منذ يحكمهما الأخوان . حيث تجمع بينهما رابطة الدم .

وكأن القاص قد ركز على هذه النتيجة منذ بداية السيرة وجعلها تتحقق في الصفحات الأخيرة منها . ففي الجزء الأول من السيرة يولد للملك سيف أول أبنائه من زوجته شامة فيطلق عليه اسم (دمر) . ودمر إحدى معالم بلاد الشام . ثم يولد له ابن آخر من زوجته منية النفوس . فيسميه مصر ليجعله ملكاً على مصر .

إنه حلم الوحدة الذي ما يزال يداعب أخيلة العرب ، منذ تصدعت وحدتهم إلى يومنا هذا .

ثم ينظم الملك سيف قصيدة طويلة يضمنها أحداث حياته الحافلة بالغرائب والعجائب ، ومغامرات الحب والحرب ، وتلك القصيدة تكوّن الصفحات الأخيرة من السيرة .

وينهي الراوي السيرة بهذه الخاتمة :

فلما فرغ الملك سيف من نظم هذه القصيدة تودع من أهله والحاضرين . وسكن هذا الجبل الذي خلف القلعة . وقعد يعبد الله تعالى هو ومن معه من الناس الذين من أقرانه من الملوك والحكماء الذين تبقوا معه .

والملك مصر حكم مصر ، واطاعته الولاة براً وبحراً .

وكذلك دمر أطاعته الولاة براً وبحراً . وارتاحت الناس ...

★ ★ ★

إن جملة (وارتاحت الناس) هذه التي اختتمت بها السيرة تعبر أبلغ تعبير عن الغاية التي وضعت من أجلها السيرة . أي لتشير إلى ما كان يقلق الناس آنذاك . ثم تضع أمامهم الحلول التي تريحهم ، والتي يجب أن يسعوا إليها . فالناس ما كانوا راضين عن الأوضاع القائمة آنذاك .

كانوا يحلمون أن يؤول الحكم إلى ملك عربي أصيل ــ كما حدث في السيرة ــ يعيد إلى الشعب كرامته ، ويطرد الدخلاء ، ويقضي على الفتن التي أرهقت الشعب ، ولا يتحيز إلى فئة دون فئة فتطيعه الولاة ــ الذين كانوا دائماً مصدر تلك الفتن ــ

ولما كان القاص يعتقد أن تحقيق ذلك كله من الأمور الصعبة العسيرة في ذلك العهد ، اتخذ الملك سيف رمزاً لهذا الملك العربي ، وجعل له أعواناً من القوى الخارقة للطبيعة ليستطيع التغلب على الصعاب ، ويحقق الأحلام العسيرة .

إن هذا الإعتقاد نفسه ناجم عن فقدان الشعب ثقته بنفسه . فالشعب لم يقم بأي جهد في هذه السيرة ، كانت الجهود كلها ملقاة على عاتق فرد واحد ذي قوة خارقة هو الملك سيف وحده .

الخيال والمغالاة في سيرة الملك سيف

إن ما يذهل حقاً في هذه السيرة هو شطحات الخيال الجامحة والمغالاة التي لا حدود لها .

فأي مخيلة خصبة هذه التي أبدعت وصف جزر الواق الواق ، والبستان المطلسم ، والمعارك الضارية بين الفرسان ، والأعمال الخارقة التي يقوم بها الكهان والسحرة والجان .

وأي غلو هذا الذي يصف لنا عملاقاً من بني البشر يبلغ طوله ستين ذراعاً .

وفارساً يقتل في جولة واحدة ستين فارساً مغواراً فيرمي رؤوسهم كالأكر ، وكفوفهم كأوراق الشجر . كما يرد دائماً في السيرة . والكهان الذين يطيرون على أسرتهم فيقطعون في ساعات معدودات ما يقطعه غيرهم في أربع وثلاثين سنة .

الإغراب في المصادفات : يصفق الملك عبود خان إيذانا بإلقاء الملك

سيف في البحر ، فيقع خاتم الملك عبود خان المطلسم في البحر وتبتلعه سمكة يصطادها الملك سيف عندما ينجو من الغرق فيجد في جوفها الخاتم ويفوز به .

قدرة القاص على ابتكار الأحداث المثيرة الطريفة وربطها ببعضها ، بفن روائي لتخدم العمل المتكامل .

التفنن في وصف الكنوز المرصودة وطريقة الوصول إليها ، والمدن المطلسمة ، والأدوات السحرية ، والقصور المطلية بالذهب الخالص المرصعة بفصوص الياقوت والجوهر .

وأحب أن أورد بعض النماذج المختارة وألخصها لما فيها من فن وإبداع .

الملك سيف وجده الملك سام

قال الكاهن أخميم الطالب للملك سيف بن ذي يزن :

لقد ظللت في هذا المكان لا أبرحه إحدى وعشرين عاماً أنتظر مجيئك لأرشدك إلى كنوز جدك الملك سام بن نوح ، المرصودة على اسمك . وقد توارثت الحفاظ عليها عن أبي وأبي عن جدي .

ثم يقود الملك سيف إلى جبل شاهق على قمته عمود ، يقابله جبل آخر على قمته عمود أيضاً . يفصل بين الجبلين عن بعضهما نهر غزير صاخب . يقول أخميم الطالب للملك سيف :

إذا رأيت يا بني درجات على العمود كنت أنت حقاً صاحب الرصد . يقول الملك سيف : أني أرى الدرجات واضحة على العمود .

فيقول أخميم : اصعد عليها إذاً إلى أن تجد مكاناً نحت في صخر العمود على قياس قدميك تماماً ، فقف عليه وأقفز إلى العمود الآخر

عبر النهر . وستقع قدماك بحكمة قادر على مكان من العمود الآخر نحت أيضاً على قياس قدميك . ثم انزل على درجات العمود إلى أن تصل إلى السفح ، وستجدني هناك بانتظارك إن شاء الله .

يقول الملك سيف متعجباً وخائفاً بعض الشيء :

وكيف يمكنني أن أقفز هذه المسافة البعيدة دون أن أسقط من شاهق في هذا النهر الصاخب المتلاطم ؟

ويبتسم أخميم الطالب ويقول : لا عليك أنت ستحملك الأرصاد .

ويتوكل الملك سيف على الله ويصعد الدرجات ، ويصعد إلى أن يجد مكاناً على قياس قدميه تماماً فيقف عليه ويقفز ، فإذا هو على المكان الآخر من العمود الثاني . ويرى الدرجات فيهبط عليها بخفة إلى أن يصل إلى الأرض فيجد أخميم الطالب بانتظاره . ويقول له :

ـــ عليك الآن أن تقف أمام هذا القصر المنحوت في الجبل ، وتقرأ حسبك ، ونسبك فيفتح لك الباب من تلقاء نفسه . فسر في دهليز القصر إلى أن تجد نفسك أمام غرفة فادفع بابها وادخلها ، ستجد في صدرها سريراً قد سجي عليه ميت ، هو جدك الملك سام ، فاقرأ عليه السلام وانتظر خاشعاً ، فسيرفع الميت يده اليمنى وستجد لوحاً من ذهب مشبوكاً بسلسلة من فضة من عنقه إلى ذراعه ، ففك السلسلة بتؤدة ، واسحب اللوح ، وعد من حيث أتيت دون أن تنبس بكلمة ، أو تلتفت يميناً أو شمالاً .

يفعل الملك سيف ما يطلبه منه أخميم الطالب بحذافيره ، ويعود باللوح وهو في أشد الدهشة والعجب من الميت الذي يحرك يده .

ويأخذ أخميم اللوح من الملك سيف ويقول له :

عد مرة ثانية يا بني ، واستأذن جدك الملك سام في أخذ السيف . فإذا أذن لك ، يرفع يده اليسرى ، فاسحب السيف من تحت جنبه ، وعد من حيث أتيت . وإذا فزت بهذا السيف كنت من المحظوظين المنتصرين ، لأنه سيف آصف بن برخيا وزير النبي سليمان ، ومن حاز عليه لا يهزم أبداً .

ويفعل الملك سيف كما طلب منه الكاهن أخميم الطالب ، فيؤذن له بالسيف ويأخذه .

لكن فضول الملك سيف الغريزي ، وحبه للمعرفة يدفعانه لأن يميط اللثام عن وجه الميت ليرى جده . ويفتح الميت عينيه وينظر إلى سيف نظرة شزراء ، وينفخ من فيه شراراً وناراً . وإذا قائل يقول بصوت كالرعد :

يا قليل الأدب ، يا أخس العرب ، هل بلغ من وقاحتك أن تكشف عن وجه أولاد الأنبياء في هذا المكان ، بعد أن أولوك الجميل والإحسان ؟

وتتتابع الصرخات ، ويهتز القصر من كل الجهات ، ويخيل للملك سيف أن الأرض انخسفت ووقعت فوقها السماء . ويقوم عليه الخدام ، ويهدروا كما تهدر أسد الآجام ، حتى صار لا يقدر على وقوف أو قعود ، ولا ينطق بكلام . ولولا أنه متقلد بذلك الحسام لكان خدام القصر سقوه كأس الحمام .

ويجره الخدام ويرموه خارج القصر ، وهو مغشي عليه . ويبقى في غشيته إلى اليوم الثاني . فإذا أفاق راح أخميم الطالب يلومه ويقول له :
إن ما فعلته لإثم كبير ستدفع ثمنه غالياً . وأنا لا قدرة لي الآن على مساعدتك ثم يأخذ اللوح والسيف ويختفي .

وتبدأ فترة من الشدة والمعاناة تدوم ثلاثة شهور . والملك سيف وحيد على رأس جبل تحيط به المياه من كل جانب . وكان يجد أمامه كل يوم قليلاً من الخبز والعسل يتقوت بهما . إلى أن يشتد به الضيق ، ويستولي عليه اليأس ، فيقذف بنفسه من الجبل إلى النهر . ويظل يصارع الأمواج فإذااقترب من الشاطىء حتى يكاد يلمسه تعيده الأمواج إلى حيث كان ، إلى أن تكل قواه ، فيكف عن الصراع . وتقذفه الأمواج إلى نفق مظلم تهدر فيه المياه وتصطخب ، فيغمض عينيه ويستسلم إلى الموت . ويصحو عند الفجر فإذا التيار قد حمله إلى شاطىء يمتد في واد واسع ، وقد اشتبكت ثيابه بشجرة مشمش كبيرة ، نبتت على حافة النهر وتدلت أغصانها على مياهه فكانت سبب نجاته . بعد كفاح طويل يجتمع بأخميم الطالب فيعطيه اللوح والسيف ، اللذين لهما دور بطولي في القصة . وكثيراً ماكانا يسرقان من الملك سيف ثم يستعيدهما . ولولاهما لما استطاع أن يحقق ما حققه من انتصارات ، ومعجزات . فكان إذا فرك اللوح يحضر المارد عيروض ابن الملك الأحمر ، الذي لا يعجز عليه شيء ، فكان هو والجنية عاقصة أخت الملك سيف بالرضاع والتي تتزوج من عيروض في آخر القصة من أهم أعوان الملك سيف ومساعديه .

أما السيف ، فهو سيف آصف بن برخيا المطلسم . وما كان الملك

سيف ليحارب أعداءه إلا بسلاح متكافىء ، كما يتحتم على الفارس النبيل الشجاع .

لكن إذا تكاثر عليه الأعداء وكان وحيداً ، أو فاجأه الجن ، والكهان والسحرة ، يجرد عندئذ سيف آصف بن برخيا الذي يبتر الكافرين ، وينبو عن المسلمين .

هاجمه ذات يوم جماعة من الجن دفعها لقتاله أعداء له من السحرة والكهان ، فحاربهم بهذا السيف العجيب فكان يخرج من كل ضربة يوجهها إلى جماعة الجن سبع بوارق ، كل بارقة يخرج منها سبعون شهاباً ترمي شراراً وناراً . حتى احترقوا جميعاً في ساعة واحدة ، وأنزل الله عليهم عذاباً مهيناً .

منية النفوس ، والبستان المطلسم

تنقذ الجنية عاقصة أخاها الملك سيف من مكيدة دبرتها له أمه الملكة قمرية .

فتخطفه عاقصة من بين أعدائه ، وتحمله على كاهلها وتطلب الجو الأعلى ، تشق الغمام ، وتسابق الريح لتوصله إلى مملكته في أسرع مايمكن كما طلب منها . وكانت إذا مرت بالأماكن الحلوة تدنو من الأرض ليتمتع الملك بمناظرها الجميلة ، ويشم من إحداها رائحة طيبة ذكية فيقول :

ــ يا أختي يا عاقصة ما هذه الرائحة التي ما عرفت لها مثيلاً . لقد أنعشت والله قلبي ؟.

ــ هذه رائحة الوادي المعلَّم ، والبستان المطلسم ، اللذين صنعتهما السحرة بعلم الأقلام ليتنزه فيهما بنات الملوك والكهان .

ــ لقد شوقتني والله لرؤية هذا البستان المطلسم .

ــ أنا لا أستطيع الدنو منه . لأن أرصاده تحرق بني الجان . أما أنت فتستطيع . لكن أخشى أن يصيبك منه مكروه .

ـــ لن يهنأ لي عيشي إن لم أر هذا البستان .
ـــ لقد أتعبتني يا أخي ، وأتعبت نفسك !.. تريد أن تعرف كل شيء ، وترى كل شيء ، وهذا ما لا نهاية له .
ـــ أعدك أنني لن أمكث في البستان إلا ساعة أو بعض الساعة .
ـــ أمري لله ...

وراحت تهبط ، حتى نزلت في مكان غير بعيد من البستان ثم قالت للملك سيف :
ـــ سأنتظرك ها هنا فلا تبطىء علي ، واستمع لنصيحتي ،وأعها تماماً ، وإلا عرضت نفسك للهلاك .
إياك ، ثم إياك أن تقطف ثمرة ، أو تمس زهرة ، أو تدخل المنظرة . لأنها كلها بعلم الأقلام مطلسمة .

يدهش الملك سيف مما يشاهده ، ويعاينه في البستان المطلسم . الأثمار النادرة ، والأزهار الغريبة ، والطيور الشادية . ولما يصل إلى المنظرة يقف أمامها مشدوهاً . كان بناؤها يحير العقول ، قائمة على أربعين عموداً من الفضة على شكل دائرة حول بحرة كبيرة . وبين العمود والعمود شباك من نحاس أصفر مموه بالذهب الأحمر ، وقد صنف فيها أربعون كرسياً من الذهب المرصع بفصوص الجوهر . ووراء كل كرسي خزانة بابها من نحاس أصفر مموه بالذهب الأحمر . ويتحرك فضول الملك سيف على جري عادته ، فينسى وصية عاقصة ، ويدخل المنظرة ، ويفتح الخزائن كلها ، فإذا داخلها مبطن بالحرير والمخمل ، وفي كل خزانة مئزر من حرير ملون ، وبذلة مطرزة بالذهب والفضة والجوهر ، مما لا يوجد مثيله إلا في خزائن الملكات . فيتملكه العجب من هذا كله ، وبينما هو سادر في دهشته ،

يتمنى أن يرى صاحبات هذه البذلات الكنوزية ، إذا طيور كبيرة بيضاء تملأ الجو ، وترفرف حول المنظرة ، ثم تهبط عليها . ويتوارى الملك سيف بين أعشاب طويلة ليرى ما شأن هذه الطيور البيضاء الكبيرة .

تبلغ دهشة الملك حد الذهول عندما يرى الطيور تخلع أثواب الريش ، وتبرز منها صبايا كحوريات الجنان ، وتفتح كل صبية خزانتها وتخرج منها مئزراً ملوناً تلتف به ، ثم يجلسن حول البحيرة ، ويلقين فيها أرجلهن ، ويلعبن ويتراشقن بالمياه ، ويكركرن ضاحكات . إلا واحدة منهن تظل محتفظة بثوبها الريشي ، ويتنبهن لها . ويتعجبن من أمرها فتقول لها أحداهن :

ـــ ما بال الملكة منية النفوس على غير عادتها اليوم ؟

فترد عليها الملكة قائلة :

ـــ لا أحب أن أخلع ثوبي ، لأني أشعر بضيق في صدري ، ولا رغبة لي في شيء .

ويتجمع حولها الصبايا ، ويرحن يمازحنها ، ويرفهن عنها ، وما يزلن بها حتى تمتثل لهن وتخلع ثوبها .

ومايكاد الملك سيف يراها من مكمنه عارية حتى يصاب بالخبل من فرط جمالها . ويظل في مكانه جامداً يحدق إليها .

ويفك الصبايا مآزرهن ، وينزلن إلى البحيرة يسبحن فيها عاريات . لكن الملك سيف لم يعد يرى منهن إلا منية النفوس . لأن من يرى القمر لا يحفل بالنجوم .

ولما يصبحن كلهن في البحيرة يتسلل الملك سيف من المنظرة ويعود

إلى أخته عاقصة مجروح القلب ، دامع العينين فتقول له :

ــ ما الذي جرى لك يا أخي ؟ إني أراك في كرب عظيم .

يجيبها :ــ وأي كرب !.. لقد وقعت في هوى الملكة منية النفوس ، فلا بد لي منها ، ولو تجرعت من المنية كؤوس .

وتلطم عاقصة على خديها وتقول له :

ــ يا ويلي منك ، ويا ويلي عليك !.. ألم أقل لك إياك أن تقترب من المنظرة ؟.. أوتعلم من هي منية النفوس هذه ؟ إنها بنت الملك العبوس صاحب جزر الألماس التي تبعد عنا أربعة وثلاثين عاماً ، وعنده من العساكر أربعة ملايين لا هم متزوجون ، ولا صنعة لهم إلا الحرب والقتال . وقد دانت للملك العبوس ملوك الصين جميعها ، ودفعت له الخراج . وقد أمر سحرته أن يصنعوا هذا البستان لإبنته الغالية عليه ، لتتنزه فيه مع صواحبها من بنات الملوك والكهان سبعة أيام من كل سنة . وقد صنع لهن الكهان أيضاً بعلم الأقلام أثواب الريش التي يطرن بها فيقطعن في يوم واحد ما نقطعه نحن في سنة كاملة . فعد يا أخي إلى مملكتك ، وعساكرك ، وزوجاتك وأولادك ولا تطلب المحال .

ويجيبها :

ــ لم أعد أفقه مما تقولين شيئاً ، ولم أعد أعرف أن لي مملكة وعساكر وزوجات وأولاداً ، صدقيني إن عيني لم تعودا تبصران إلا الملكة منية النفوس منذ وقع نظري عليها . فاذهبي أنت في سبيلك ، ودعيني وحدي أواجه قدري .

وتخشى عاقصة أن يصيبه مكروه فتقول له :

ــ لو لم يكن لك علي دين لا وفاء له ، لتركتك وشأنك ، لكن

منذ قتلت المارد الأقطع بسوطك المطلسم وأنقذتني منه حين خطفني ليتزوجني أجدني مدينة لك . فلن أتركك وحدك في هذا البلاء ، ولو لم يعد لي طاقة عليك .

فيقول لها :

ـــ أنت الأخت الحنون ، لا عدمتك أبداً ، فبماذا تنصحينني ؟..

ـــ ليس أمامك إلا أن تعود إلى البستان ، وتسرق ثوب منية النفوس الريش . فإذا افتقدته اضطرت أن تظل وحيدة بالمنظرة ريثما يطير صاحباتها ويبعثن لها بثوب آخر . فإذا ذهبن ، وبقيت وحدها فما عليك إلا أن تتراءى لها من بعيد ، وتلوح لها بالثوب فستتبعك لا محالة لتسترد منك ثوبها الريشي . يجب عليك أن تكون حذراً . فإذا مستك وأنت في البستان تستطيع هي أن تقبض عليك ، ولا خلاص لك منها عندئذ . أما إذا تجاوزت البستان فسيبطل فعل الأرصاد ، وتستطيع أنت أن تقبض عليها وتفوز بها .

وتقع الملكة منية النفوس فريسة في الشرك الذي نصبته لها الجنية عاقصة .

ولكن منية النفوس لم تأسف ، فما تكاد تتعرف على الملك سيف حتى تقع هي الأخرى في حبه ، ويتزوجان وتصبح من آثر زوجاته لديه .

هذه نماذج من المغامرات التي نستطيع أن نسميها (مغامرات الملك سيف الشخصية) لأنها تتعلق بشخصه ، ونسبه وأسباب تعرفه بزوجاته ، وبأمه ، وأخته عاقصة وخادمه عيروض ، ثم المصادفات التي قادته إلى الكنوز التي رصدت على اسمه ، والأدوات السحرية التي فاز بها .

أما المغامرات التي قام بها ، والحروب التي شنها لاسترداد عرشه ، ولنشر دين الإسلام فكثيرة جداً ، وأحب أن أنقل إحداها كما وردت في السيرة تماماً لنأخذ فكرة عن اللغة والأسلوب اللذين كتبت بهما السيرة .

حرب الملك سيف مع الملك مرادف الجبال

حملت العساكر على العساكر ، وقامت الحروب على قدم وساق ، وكثر الصياح والزعاق ، وكثر الفنا والمحاق ، وعملت السيوف الرقاق ، والرماح الدقاق ، وبليت عساكر مرادف الجبال بما لا يطاق ، وذاقوا طعم الموت فرأوه مر المذاق ، فتشتتوا في البراري والآفاق ، ودام السيف يعمل ، والدم يبذل ، والرجال تقتل ، ونار الحرب تشعل ، إلى أن ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار ، وأيد الله المؤمنين الأبرار ، وخذل الكفار ، حين هجم الملك سيف على مرادف الجبال ، وطابقه ولاصقه ، وسد عليه طرائقه ، وتعلق في جلباب درعه ، وعصر على خناقه فكاد أن يخرج أحداقه ، وصاح بالدين الإسلام ، وجذبه بقوة واهتمام ، فأخذه أسيراً ، وقاده ذليلاً حقيراً .

ولما رجع الملك سيف من الحرب والقتال تلقوه الرجال وهنأوه بالنصر فشكرهم ، وأثنى عليهم ، وجلس في صيوانه ، وطلب مرادف

الجبال فأحضروه إليه . فلما حضر قال الملك سيف بن ذي يزن :
ــ ها قد بلَّغتك مقصودك ، وبرزت إليك ، وأعانني الله عليك ، وأخذتك من حومة الميدان بقدرة الله الملك الديان . وما بقي لك مني خلاص سوى أن تدخل في دين الإسلام ، وتترك عبادة الأوثان والأصنام . فإن فعلت ذلك كان لك الحظ الأوفر وإن أبيت الإسلام فما لك عندي إلا قتلك ، والسلام .

فقال له مرادف الجبال :
ــ فإن أسلمت هل تطلب مني شيئاً غير الإسلام ؟
فقال الملك سيف :
ــ نعم ، أطلب أهل مملكتك ، وأعرض عليهم الإسلام ، فمن أسلم قابلناه ، ومن كفر قتلناه ، ولا أفتر عن بلدك حتى أجعل أهلها إسلاماً كلهم يعبدون الملك العلام .
ــ أما أنا فأقول على يدك : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن ابراهيم خليل الله .

ففرح الملك سيف بن ذي يزن بإسلام مرادف الجبال ثم جربه على سيف آصف بن برخيا (الذي يقتل الكفار ، وينبو عن الإسلام) فوجد إسلامه صحيحاً صادقاً فرحب به ، وقام إليه وفكه من وثاقه ، وضمه إلى صدره ، وخلع عليه خلعة سنية تساوي ألف دينار مصرية .

ويسنم رعايا مرادف الجبال جميعهم ، فيقره الملك سيف ملكاً عليهم كما كان . وينصرف هو إلى متابعة حروبه ونشر رسالته .

كأن القاص يريد دائماً أن يجعل من الملك العربي سيف بن ذي

يزن مثالاً يحتذى للبطل الذي يحارب في سبيل عقيدة ومبدأ ، فلا يجعل له غاية من وراء الحروب سوى نشر دين الإسلام . فهو لا يفكر بالمغانم ، أو بالاستيلاء على البلاد ليضمها إلى ملكه أبداً . فمن يسلم من الملوك يقره على ملكه كما كان ، ولا يطلب منه جزية أو خراجاً . إنما يكتفي أن يجعله من حلفائه . ومن يأبى يظل يحاربه حتى يهلكه ورعيته .

تتكرر هذه المواقف في السيرة كلها ، على كثرة ما فيها من حروب فيفتعل القاص المناسبات ليتيح للملك سيف فرص محاربة أهل الكفر والمحن كما يسميهم .

الأسلوب واللغة

الإهتمام بالتنميق ، والسجع ، والتكلف في صيغ الجمل كان طابع أدب ذلك العصر الذي كتبت فيه السيرة . وما كان أسلوب السيرة لينجو من ذلك كله . هذا إلى جانب تعابير عامية كثيرة ، وأخطاء لغوية في النثر والشعر كأنما تجيء أحياناً عمداً ، إما لاحكام السجع ، وإما لتكون أسهل فهماً على العوام ، مما يشعر أن السيرة كتبت للعامة أكثر منها للخاصة .

أما الذي يزعج القارىء تماماً ، ويجعله يزهد في متابعة القراءة هو كثرة التكرار إلى حد لا يطاق .

في اعتقادنا أن هذا التكرار لم يأت من المؤلفين الأصليين ، فالذوق الذي أبدع هذا الخيال ، وألف هذه الأحداث ببراعة فنية ما كان ليقع في هذه التفاهة . إنما جاء من (الحكواتية) الذين كانوا يعمدون إلى الإطالة ليكسبوا مزيداً من الوقت فيلخصوا بين فصل وفصل بلسان أحد

شخوص القصة ما سبق قوله . وذلك ليفهم الزبائن الجدد مجرى القصة فتجذبهم ويصبحوا مدمنين على سماعها . وكثيراً ما يقحم الشعر دون مناسبة . يقول الراوي عن الملك سيف بين صفحة وصفحة : عاد الملك إلى طبع العرب فأغرب وأطرب وأنشد يقول .

وتأتي قصيدة طويلة لا محل لها ، ولا غاية وراءها سوى الاطالة وكسب الوقت . وفي كثير من الأحيان تلخص القصيدة ما قيل نثراً . ربما كان المتلقون يطربون لهذا الشعر — على الرغم من ركاكته وعلاته — لا سيما عندما يرويه الحكواتي بصورة تمثيلية ، وأحياناً يستعين بالربابة ويرويه منغماً . وأكثر شخصيات القصة تنظم الشعر حتى في أحرج الأوقات .

أما أسماء الشخصيات فطريفة جداً تعبر دائماً عن صفات المسمى . فمن أسماء الفرسان : عطمطم خراق الشجر ، مناطح البغال ، الصول الهائل ، ملاكم الريح ، صدغ الفيل ، مرادف الجبال .

ومن أسماء عبدة النار : عبد الدخان المارق ، عبد الوقود الخارق ، عبد اللهب الشاهق .

ومن أسماء الجان : غيهوب الصاعق ، كيهوب العاصف ، المارد المختطف .

ومن أسماء الصالحين : الشيخ عبد السلام ، الشيخ جياد ، الشيخ أبو النور الزيتوني .

ومن أسماء الجميلات : منية النفوس ، قمر شاهق ، نفيسة الدر .

فمجرد أن نعرف إسم الشخصية نستطيع أن نكون لها صورة في

خيالنا ونتنبأ بالدور الذي ستلعبه في القصة . فالملك أفراح مثلاً ملك يؤثر السلامة ، وقد يضحي بابنته شامة فيزوجها بمن لا يريد تفادياً للحرب ، بينما الملك سيف أرعد مغرم بالحروب والمغامرات يثيرها لأتفه الأسباب . كما ينبىء اسمه .

وعلى الرغم من ضخامة السيرة وتشعب أحداثها نجد ترابطاً مدهشاً بين هذه الأحداث ، وتركيزاً على الشخصيات الرئيسية فنتابع نموها وتطورها الطبيعي من أول السيرة إلى آخرها . كذلك الشخصيات الثانوية تقوم بدورها المرسوم لها بدقة تامة .

أما الذي يجذب المتلقين فهو ابتكار المفاجآت التي تثير الفضول . وتهيئة الأجواء ، وتصوير الأماكن ، والجزئيات حتى لكأنهم يعيشون فيها ويرونها رأي العين . كما سنرى في وصف حمام بناه كاهن في أربعة أيام .

الحمام العجيب

مد الكاهن يده إلى جربنديته[1] وأخرج منها قطعة من البلور الأبيض مثل قعر القنديل لا يزيد وزنها عن ثلاثة مثاقيل ، ووضعها على الأرض ، وخطط حولها ، بالطول والعرض ، وكل الناس تنظر إليه ، ويتعجبون من فعله ، ويضحكون عليه . ثم جعل يدور حولها ، ويترجم ويهمهم ليلاً ونهاراً ، وعشياً وإبكاراً ـــ ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع وإذا بالبلورة ضربت في الأرض ، وكبرت ونمت ، وأخذت في الصعود إلى العلا ، وصارت تتسع في الصعود إلى الجو ، وتنفرش على الأرض إلى أن صارت حماماً بأربعة وعشرين ليواناً من البلور المصفى ، يتهيأ لكل من نظره أنه جوهرة إذا لمعت فيه الشمس وقت الظهر ، وكذلك الحيطان والفساقي والبحيرات ، ومخارج المياه ، ومع ذلك هو قطعة واحدة فيه عيون لإخراج المياه ، فإذا أراد أحد أن يدخل هذا الحمام يرى كل ما فيه وعليه ، وكل

(١) الجربندية : الجعبة .

من نزل فيه يجد من الثياب ما أراد ، وإذا أراد الماء البارد وجده ، وإذا أراد الحامي وجده ، من غير أن توقد فيه نار ، ويجد الماء يتزايد حسب المراد ، فصار هذا الحمام أعجوبة من أعاجيب الزمان لأنه ما فعل مثله إنسان .

على هذا النسق يسير أسلوب القصة في وصف ألاعيب السحر والكهانة للوصول إلى الهدف دون تعب أو نصب . فتبنى المدن بكاملها وتفرش قصورها بأثمن الرياش في أيام معدودات . وفي لمحة يعد الجان موائد الطعام الفاخر ، هذا إلى جانب وصف المعارك وشجاعة الفرسان الخارقة ، والنساء الجميلات اللواتي ينتظرن العشاق في مقاصيرهن . فتتيح القصة للمحرومين المقهورين أن يعيشوا في عوالم وهمية من نسيج الخيال يعوضون بها عن فشلهم الواقعي .

أسطورة المياه

كأني بالقاص أراد أن يجعل للملك العربي سيف بن ذي يزن وابنه دمر حقاً شرعياً في بلاد مصر والشام فابتكر أسطورة المياه هذه . لأن وجود المياه هو الشرط الأساسي لوجود المدن وإزدهارها . فجعل من الملك سيف وابنه دمر بطلين لأسطورتين طريفتين فالبطلان يجران المياه إلى تلك البلاد فتعمر بفضلهما المدن ، وتزدهر ويتهافت عليها الناس .

أسطورة النيل

يخطب وحش الفلا أي (الملك سيف) شامة بنت الملك أفراح بعد أن ينقذها من المارد المختطف ، الذي خطفها ليتزوجها ، ولم يسع الملك أفراح إلا أن يقبل بهذا الزواج ، ويخشى الكاهن سقرديون إن تم هذا الزواج أن يقضي على دين الحبشة وينتصر عليها العرب كما ورد في كتب الكهانة . فيتفق مع الملك أفراح على هلاك وحش الفلا . فيطلبان

منه أن يأتيهما بكتاب النيل مهراً لشامة . وكتاب النيل هذا مطلسم يستطيع من يحوز عليه أن يجري نهر النيل أينما شاء . ولكن دون الوصول إليه مهالك وصعاب لن ينجو منها أحد . ولكن وحش الفلا يستطيع بعد أن تعرض للهلاك مرات عديدة أن يفوز بكتاب النيل بمساعدة الحكيمة عاقلة وأخته الجنية عاقصة وأن يجري النيل من الحبشة إلى أرض مصر فتعمر مصر بفضله وتزدهر ويتهافت عليها الناس .

أسطورة بردى

يسرق دمر ابن الملك سيف خرزة الملك كوش من أخيه مصر . وكانت الخرزة مرصودة على اسم مصر . ولهذه الخرزة سبعة أعوان من ملوك الجان يخدمون من يملك الخرزة .

يحمل دمر الخرزة ويهرب بها إلى بلاد الشام ، وهناك يسمع بجمال الجابية بنت الملك جيرون ملك الشام فيعشقها دون أن يراها ، ويتناهى إليه أن الجابية مولعة بالشعر والشعراء فيتزيا بزي شاعر جوال ، ولم يكن يجيد الشعر فيأمر أحد أعوانه من خدام الخرزة أن يتقمصه ويروي الشعر بلسانه ، ويقف أمام باب قصر الجابية ينشد الشعر الذي ينظمه الجني فتسمع الجابية شعراً رائعاً لم يسبق أن سمعت نظيره ، فتهتز طرباً وتسمح للشاعر بالدخول إلى مجلسها لينشدها شعره العجيب ، وتظل الجابية تستزيده ويظل ينشد وهي مأخوذة به حتى تقع في حبه ، وتطلب منه أن يخطبها من أبيها فيقول لها : وهل يرضى أبوك الملك جيرون أن يزوجك من شاعر جوال مثلي ؟

فتقول له :

ـــ إن أبي مولع بالشعر مثلي ، فإذا أنشدته مثل ما أنشدتني من شعرك الجميل الرائع سيقول لك : اطلب مني ما تريد ، وتمنَّ علي ما تشاء أيها الشاعر . عندئذ اطلب منه أن يعطيك الأمان ، فإذا أعطاكه تستطيع أن تخطبني منه . ولن يتراجع عن وعده لأنه لا يليق بالملوك أن تحنث بوعودها .

ويفعل دمر ما طلبت منه الجابية .

ويصعب على الملك جيرون أن يزوج بنته من شاعر جوال فيلجأ إلى وزيره توما لينقذه مما تورط فيه . وكان الوزير توما يعشق الجابية فتشتد به الغيرة من الشاعر فيقول للملك : لا عليك سأكفيك أنا أمره . سنطلب منه مهر الجابية سبعة أنهار يجريها في أرض الشام وإن لم يفعل سيكون جزاؤه منا القتل ، فإذا سمع منا ذلك سيهرب إلى غير رجعة .

ويعجب الملك بتدبير وزيره .

غير أن الشاعر لم يأبه لهذا الطلب العسير وإنما يعد الملك بتنفيذه مما يثير عليه الضحك في المجلس .

يذهب إلى مقره ، ويدعك الخرزة ، فيحضر على الفور خدامها السبعة ملوك من مردة الجان ليقولوا لصاحب الخرزة لبيك عبدك بين يديك . فيأمرهم دمر أن يفجروا في أرض الشام سبعة أنهار .

ويعجز المردة عن تنفيذ هذا الطلب العسير ، ويخشون أن يحرقهم دمر في طرفة عين إن لم ينفذوا له ما طلب منهم . فيلجأوا إلى أبيهم الملك (عرفجة) لأنه أطول باعاً وأكثر خبرة منهم جميعاً . فيدلهم على عرق ماء في سفح جبل قائم على تخوم الشام ، وكان أول من فجر العرق المارد

(برده) أصغر إخوته فينبثق من العرق نهر غزير صاف يسمونه (بردى) على اسم مفجره ، ثم يجري الأخوة الستة ستة فروع من النهر الكبير يدخلونها إلى أرض الشام .

ويستيقظ أهل الشام فيجدون بلدهم الجافة التي كانت تعيش على مياه الأمطار قد أصبحت جنة تجري من تحتها الأنهار . فيقيمون الأفراح والزينات ، ويفرح الملك جيرون ، ويزوج بنته الجابية راضياً من الشاعر الجوال الذي أتى بالمعجزات .

فإذا كان يوم العرس يجيء دمر بموكب عظيم ، ويبين أنه ملك ابن ملك فتزداد الزينات والأفراح ، وتسهب السيرة كما جرت العادة في السير الشعبية بوصف القصر الذي بناه المردة للعروسين بين يوم وليلة ، والهدايا الكنوزية التي أكل فيها أهل المملكة جميعهم على موائد أبي العروس .

فإذا انتهت أيام العرس تعمد الجابية إلى زوجها دمر تسأله عن سرّ ذلك كله ، فيأبى أن يعترف لها بالسر ، وما تزال به تسقيه الخمر وتنادمه وتمازحه حتى يروي لها خبر الخرزة المطلسمة . ولما تعرف أنه سرقها من أخيه في مصر يكبر عليها الأمر ، وتحنق عليه أشد الحنق . وكانت ذات خلق كريم ينطوي على شهامة ومروءة ، فتعزم على إرجاع الخرزة إلى صاحبها ، وتظل ساهرة حتى يغرق زوجها دمر في نومه فتفك الخرزة المربوطة على ذراعه وتدعكها فيحضر على الفور كبير المردة فتقول له أريد أن تأتيني بسيدك مصر صاحب هذه الخرزة .

وما يغيب إلا قليلاً حتى يعود ومعه مصر . فتدفع إليه الخرزة وتقول له :

ـــ لقد سقط أخوك دمر من عيني عندما عرفت أنه سرق منك هذه الخرزة التي كانت مرصودة على اسمك ، والآن أتمنى أن أطلق منه وأتزوج منك أنت .

فيقول لها :

ـــ لا يجوز في ديننا الإسلام أن أتزوج منك ما دمت على عصمة أخي .

وتزهد الجابية بالدنيا ، فتنصرف إلى العبادة والتصوف ، وتسكن في بيت المقدس ، وتسمى بالشيخة صالحة ، ويقصدها الناس للتبرك والتداوي .

وتقول السيرة : ولما تصعد روحها إلى بارئها تدفن في بلدها دمشق في مكان لايزال يعرف باسمها إلى الآن .

وهكذا شاءت السيرة : أن تجري النيل إلى مصر مهراً لشامة وتجري بردى إلى دمشق مهراً للجابية ...

وتجعل للملك سيف وابنيه دمر ومصر الفضل في إعمار مصر والشام .

المرأة في سيرة الملك سيف بن ذي يزن

كأن القاص ــ وهو دائماً المترجم عن أفكار أهل بيئته وزمانه ــ قد سئم المرأة الضعيفة المستسلمة ، إمرأة عصره ، القابعة في عقر دارها ، التي لا حول لها ولا طول . فراح يصور المرأة في هذه السيرة بشكل آخر . يصورها ذات شخصية قوية ، ذكية ، ماهرة ، ربما كما أصبح يتمناها أن تكون .

فهي في السيرة إما ملكة عتيدة تجيد الفروسية ، وفنون الحرب ، وتدبير الملك ،وإما كاهنة رهيبة تجيد السحر وعلم الأقلام ، وحبك المؤمرات . أما المرأة العادية فلا دور لها في هذه القصة ، وإن وجدت تمر عرضاً دون أن نشعر بها .

الملكة قمرية أم الملك سيف داهية أريب ، وفارسة لا يشق لها غبار . تمردت حتى على عاطفة الأمومة فحاولت في مرات عديدة أن تقتل ابنها الملك سيف لتستأثر وحدها بالملك والسلطة دون منازع .

كأن القاص أراد أن يجعل من قمرية الجارية المملوكة التي أصبحت ملكة مثالاً لهؤلاء السلاطين المماليك المتكالبين على الملك ، والذين كانوا يغدرون ببعضهم بعضاً في سبيله ، فيقول لنا : حتى الوالدة منهم كانت لا تتورع عن الغدر بابنها في سبيل الملك والسلطة .

كذلك يصور القاص زوجتي الملك سيف ، شامة وطامة ،فارستين تجيدان فنون القتال والنزال ، فتتخفى كل واحدة منهما بزي فارس حين يخطبها الملك سيف وتتصدى له وتتحداه لتنازله وتخبر فروسيته .

الثريا الحمراء والثريا الزرقاء ، ملكتان ابنتا عم . الأولى فارسة ، والثانية كاهنة . تقعان في حب الملك سيف فتثور بينهما من أجله حروب طاحنة . ثم تمسخه الكاهنة ثريا الزرقاء غراباً ، ولا يفكه من السحر إلا الحكيمة عاقلة .

أما الحكيمة عاقلة فلها دور كبير في القصة . كانت رئيسة حكماء الملك قمرون صاحب كتاب النيل ، ثم تقرأ في الرمال أن الملك سيف سيتزوج من ابنتها الوحيدة طامة فتنقلب على الملك قمرون وتختار الملك سيف وتعينه على أخذ كتاب النيل . تصفها السيرة فتقول :

« أما الحكيمة عاقلة فهي ساحرة ماهرة ماكرة ، تستخدم الأعوان ، وتفتح الكنوز ، وتبطل الأرصاد ، وتفك الطلاسم ، وتعرف الطيران في الهواء ، وتصطنع الأكسير ، وتكشف الضمير ، وتقلب الصور ، ولا يبزها في ذلك أحد . ولذا سماها الملك سيف أم الحكماء » .

ولكن القاص في هذه السيرة مهما بذل من جهد في تصوير المرأة

الفارسة المغوارة ، أو الكاهنة الرهيبة لا يستطيع أن يتحرر من نظرة أهل عصره إلى المرأة .

يصورها في مكان آخر من السيرة ثمرة على شجرة يقطفها الرجل متى شاء .

يحمل المارد الخيرقان الملك سيف على كاهله إلى جزر الواق الواق ثم ينزل به في إحدى هذه الجزر العجيبة . فيرى الملك جزيرة خضراء بين بحرين فيها بساتين وأنهار ، وأشجار عاليات معلق فيها نساء من شعورهن التي كأنها سبائك الذهب المصفى . فيقول الملك سيف :

ما أظلم حاكم هذه الجزيرة !.. لماذا علق هاته البنات الجميلات من شعورهن في هذه الأشجار ؟

ويضحك المارد الخيرقان ويقول :

أيها الملك : هؤلاء أثمار الأشجار التي تراها ، ولسن بنات من بني آدم كما يتراءى لك .

ويهب النسيم فتتحرك الأغصان وتصرخ البنات : واق ، واق سبحان الملك الخلاق .

فيبلغ العجب بالملك سيف أشده ويقول خاشعاً : سبحان من إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

ثم يقول للمارد : مرادي أن آكل شيئاً من الطعام .

فيقول له المارد :

وأي طعام في الدنيا ألذ من هذه البنات ، وأطيب من هؤلاء النساء ؟...

ثم يمد يده إلى شجرة ، ويمسك بنتاً من شعرها ويجذبها ، فيخرجها من فروعها ، ويضعها أمام الملك سيف ، فيتأمل هذا يديها ورجليها ، ورأسها ، وعينيها ويقول : سبحان من خلقها وسواها .

ثم يفسخها المارد نصفين ، ويخرج قشرها من الجانبين فتفوح منها رائحة ذكية ، وإذا داخلها فصوص مثل البرتقال ، وكل فص كبير على قدر الجسم ، وتركيبه مثل تركيب أضلاع بني آدم . فيأكل منها سيف فيجد طعمها مثل الجوز الرطب والشهد المصفى ، وأطيب من المأكولات جميعها .

وينتهي الملك سيف من طعامه ويتقدم المارد فيرفع البنت من أمامه ، ويرد عليها قشرتها ويضعها جانباً . وبعد لحظات يأتي طائر كبير فيحملها بمنقاره من رأسها ويعيدها إلى فرعها فتلتحم به وتعود كما كانت .

ويتطلع الملك سيف حوله ذاهلاً مأخوذاً ، ولا يتنبه من ذهوله إلا حين يهمس المارد الخيرقان في أذنه قائلاً :

أيها الملك : يوجد بالقرب من هذه الجزيرة جزيرة أخرى من جزر الواق الواق السبع أجمل من هذه ، وأثمار أشجارها بنات أيضاً ، لكنهن أحلى صوراً ، وألذ مذاقاً من بنات هذه الجزيرة ، وهن يصلحن للأكل ، والمغازلة ، وممارسة الحب أيضاً . ولا تثريب على من يغازلهن لأن حكمهن كحكم الرقيق المملوك . كما يمكن أن يملحن ليحتفظ بهن إلى حين الحاجة إلى ذلك كله .

فيفكر الملك سيف برهة وهو يحدق إلى المارد الخيرقان كأنه لا يصدق ما يسمع . ثم يقول له :

هيا بنا إلى تلك الجزيرة العجيبة ، الغريبة .

لما كان الإنسان العربي في ذلك العهد الذي كتبت فيه السيرة والذي يطلق عليه إسم (عصر الإنحطاط)مضطهداً ، مرهقاً ، قلقاً ، غير راض عن واقعه ، وعاجزاً عن مواجهة مشكلاته ، والسعي إلى حلها راح يحلم دائماً بالفرار من ذلك الواقع الذي يعجز عن تغييره إلى عوالم وهمية كان خياله يفتن في نسجها .

ولعل أقصى ما كان يتمناه ويحلم به ـــ وهو ابن الصحراء ـــ هو أن يلجأ إلى جزيرة خضراء ذات أنهار وأشجار ـــ كالجنة التي يصفها القرآن ـــ لكن لا يسكنها أحد ، لأنه فقد ثقته بالناس جميعاً ، وليبعد عن جو الفتن والإضطهاد ، ولينعم بالهدوء والراحة .

ولما كان لاغنى له عن المرأة ، ولم يخطر له أبداً أن يتخذها شريكة ترافقه بتلك الرحلة الوهمية ،ومن أين له أن يخطر له ذلك وهو لا ينظر إليها نظرة الند إلى الند ، راح يتخيلها أجمل ما في تلك الجزيرة ، أي ثمرة على شجرة تفي له بجميع حاجاته ، يقطفها متى طاب له قطافها ...

إذا شاء أكل منها ، فإذا هي لذيذة الطعم ، ذكية الرائحة ، وإذا شاء غازلها ، ومارس معها الحب فإذا هي أجمل النساء وأرقهن ، ولا تزعجه بثرثرتها أو متطلباتها فهي لا تنطق إلا بجملة واحدة :

ـــ واق ، واق ، سبحان الملك الخلاق .

فهي إذن لا تكلفه سوى أن يمد يده ويقطف .. يقطف ما يلائمه ، ويحلو له . والأعجب من ذلك كله أنه يستطيع أن يملحها

ويحملها حيث شاء ، ويحتفظ بها إلى حين تدعوه الحاجة إلى ذلك كله !...

هل بعد هذا الخيال خيال يدعو إلى الكسل ، والتهافت على اللذات دون بذل أي جهد من هذا الذي نجده في هذا المقطع من هذه السيرة ؟؟!...

كهان وعلماء

إن الأعمال الخارقة التي يقوم بها الكاهن والسحرة ، والجان في هذه السيرة قد أصبح معظمها حقائق واقعة في عصرنا هذا . وقد نعجب أشد العجب عنندما نقارن بين هذه الخيالات الجامحة التي تصورها القصاصون في هذه السيرة قبل خمسة قرون ونيف وبين المنجزات العلمية التي حققها العلماء الذين هم بحق كهان عصرنا الحاضر .

الرادار : يصنع الكهان بعلم الأقلام تمثالاً مطلسماً من نحاس يسمونه (الغمَّاز)يقيمونه على أسوار مدينتهم ليصوت عندما يقترب منها الأعداء فينذر أهل المدينة ليتأهبوا للحرب ويذودوا عن مدينتهم.

الإنسان الآلي : يقف الملك سيف على ساحل البحر ، يحمل بيده ألواحاً مطلسمة يلوح بها . كان قد أرشده إليها الكاهن « سطيح » فيظهر فوراً على سطح البحر مركب يقوده ربان من نحاس ويتجه نحو الملك سيف فينزل فيه الملك وضع في عنق الربان النحاسي لوحاً مطلسماً فيتجه الربان

بالمركب حسب مايريد الملك سيف . فإذا أراد أن يرسو وضع في عنق الربان لوحاً آخر فيرسو في الحال .

الطائرة التي تخترق جدار الصوت : يطير المارد عيروض فيسمع لطيرانه هدير كقصف الرعد ، ثم يرمي الأعداء بحجارة تدمر المدن على رؤوس أصحابها ، كالقذائف المدمرة ، أو يقذفهم بنيران متأججة كقنابل النابالم فيبيد وحده جموعهم الغفيرة في لحظات قصيرة .

الطائرة الهيليكوبتر : تطير الجنية عاقصة وتهبط خفيفة رشيقة كطائرة الهيليكوبتر لتنتشل أخاها الملك سيف وزوجه وابنه قبل أن تطولهم ألسنة النيران التي أوقدها حولهم جماعة « الطودان » عبدة النار ، ليحرقوهم بها .

البلانيتاريوم : يصنع الكاهن رومان الأزرق قبة زرقاء كالسماء ويجعل فيها كواكب تجري في مداراتها كما تجري كواكب السماء . ثم يوكل بها خدامه ليخبروه عما يجري في الكواكب ، ويخبر هو مليكه بذلك كله .

التلفزيون : يوجه الكاهن مرآته العجيبة حسب ما يريد فيرى ما يحدث في البلاد البعيدة ، ويخبر الملك بذلك .

ألبسة الغواصين : يصنع السحرة ألبسة يرتديها الملك وجنوده ليغوصوا في البحار دون أن يتأذوا ، ثم يفاجئوا أعداءهم ،كجنود القوى البحرية الذين يطلق عليهم الآن إسم الضفادع البشرية .

الباب الذي يفتح من تلقاء نفسه عندما يذكر البطل إسمه ونسبه ، أليس هو كالأبواب التي أصبحت شائعة في الأماكن العامة في الغرب ، في عصرنا هذا ، والتي تفتح تلقائياً عندما يقترب منها الناس .

خاتم المارد : أليس هو أشبه ما يكون بالزر الكهربائيُ الذي يؤمن لنا كثيراً من حاجاتنا عندما نضغط عليه ، أو بالأحرى الكمبيوتر ، هذا الذي يأتي بالأعاجيب ويوفر لنا كثيراً جداً من الجهد .

ترى هل كتب على الشرق أن يتخيل ، ويتخيل فقط ؟!.. وكتب على الغرب أن يحيل الخيال الشرقي حقائق واقعة يكبل بها الشرق ؟

مقارنة

بين سيرة الملك سيف الشعبية وقصته التاريخية

السيرة تتناول حياة إنسان ما منذ ولادته حتى موته وترصد كل حادثة ــ كبيرة كانت أم صغيرة ــ تمر في حياة ذلك الإنسان .

أما القصة فتتناول جزءاً كبيراً من الحياة ، لا الحياة بكاملها . وسيرة الملك سيف التي أبدعها القصاصون تناولت حياة بطل السيرة منذ ولادته حتى موته .

غير أن ما سجله المؤرخون عن الملك سيف فقد دار أكثره حول الحروب التي خاضها مع الحبشة ، الأمر الذي جعلنا ننظر إلى ما أورده هؤلاء المؤرخون عن الملك سيف ــ كقصة من التاريخ ــ وحين نقارن بين هذه القصة التاريخية والسيرة الشعبية نجد بينهما تبايناً كبيراً في الأحداث ، والزمان ، والمكان ، والشخصيات ، حتى تكادا ألا تتعرفا على بعضهما . هذا على الرغم من أنهما تجتمعان في خط أساسي واحد ،

هو انطلاقهما من أحداث حرب دينية تنشب بين الحبشة وعرب اليمن ينتصر الملك سيف في كلتيهما .

أما الواقع التاريخي فيشير إلى أن وراء تلك الحرب الدينية كانت هناك منافع اقتصادية ، ومناطق نفوذ هامة تتصارع عليها دولتان كبيرتان ، هما دولة الروم ، ودولة الفرس . وقد ذهب ضحية تلك الحرب الضروس دولتان أقل شأناً ، هما دولة الحبشة التي دفعتها الروم إلى القتال ، ودولة اليمن التي آزرتها الفرس . وكان من نتاج ذلك أن احتلت الحبشة أرض اليمن زمناً طويلاً إلى أن جاء الملك سيف وطرد الأحباش من بلاده المحتلة .

لكن مؤلفو السيرة لم يرق لهم هذا الواقع الذي أثبته التاريخ وما داموا ـــ في تأليف هذه السيرة ـــ لا يتقيدون بالتاريخ أبداً فماذا يضيرهم إذا تخيلوا الأمور لا كما وقعت ، وإنما كما كانوا يتمنون لها أن تقع .

وقد طاب لهم أن يجعلوا الملك سيف بن ذي يزن هو الذي يحتل أرض الحبشة ، لينشر فيها دين إبراهيم الخليل ، دين العرب الذي يبشر بمجيء الإسلام ، والنبي محمد بن عبد الله .

أليس هذا أدعى للمباهاة والمفاخرة بالبطولة العربية أمام الشعوبيين ؟؟

ونميل إلى الاعتقاد أن ذلك هو السبب الرئيسي الذي وضعت من أجله السيرة .

التاريخ يثبت أن هذه الحرب الدينية كانت بين الأحباش المسيحيين والعرب اليهود .

لكن ماذا يهم مؤلفو السيرة من حرب وقعت بين المسيحية واليهودية ؟؟..

إن ما يهمهم حقاً هو أن يبتدعوا بطلاً عربياً ينشر الإسلام ، ويعيد الوحدة بين الأقطار العربية ليستعيد العرب أمجادهم الغابرة ، كما كان يحلم الشعب آنذاك بظهور البطل المنقذ الذي تحاك حوله الأساطير . فليتركوا التاريخ إذن جانباً ، وليجعلوا هذه الحرب الدينية تدور بين الإسلام ، والوثنيين ، وعبدة النيران .

لقد جاءوا بالملك سيف من طيات التاريخ ليعالجوا به مشكلاتهم المعاصرة ، كما يفعل كثير من الأدباء في عصرنا الحاضر .

وإذا أوغلنا في المقارنة بين القصة والسيرة نجد أن علاقة الملك سيف بأمه لم تكن حسنة في كلتيهما .

ففي القصة التاريخية تتزوج أمه من الملك الحبشي « أبرهة » بينما ينتحر جده « ذو نواس » مؤثراً الموت على ذل الأسر .

ويتشرد أبوه « ذو يزن » عن وطنه ويثور على الغاصبين ، بينما تستكين أمه لغاصبها ، وترضى الزواج منه سعياً وراء أبهة الملك . مما جعل ابنها « سيف » وقد شب عن الطوق يحقد عليها ، ويثور على الأحباش ، وينتصر على أخيه لأمه « مسروق » الذي حكم اليمن بعد أبيه « أبرهة » .

أما في السيرة الشعبية فنجد الملكة « قمرية » أم الملك سيف تحاول قتل ابنها لتستأثر بالملك من دونه ، ويدوم الصراع بينها وبينه حتى منتصف السيرة ، عندما يتم قتلها .

كذلك نجد في السيرة والقصة شيئاً كثيراً من الشبه يدور حول

منشأ الملك سيف . ففي كلتيهما ينشأ في حجر ملك حبشي ، وعندما يكبر ويعرف حقيقة نسبه ينقلب على متبنيه لينصر قومه العرب ، وينشر دين الإسلام .

هذه هي النقاط الرئيسية التي تجمع بين القصة التاريخية والسيرة الشعبية ، وهي لا شك نقاط هامة تتكشف للدارس المحقق ، وتغمض على القارىء العادي الذي يكاد ألا يجد أية صلة بين القصة والسيرة .

وقد سبق أن قارنا في هذه الدراسة بين السيرة الشعبية وأسطورة أوديب .

في اعتقادنا أن مؤلفي السيرة انطلقوا من القصة التاريخية والأسطورة فاختاروا منهما ما راق لهم ، ثم أرخوا لأخيلتهم الأعنة حتى اكتملت تلك السيرة الضخمة لتؤكد ما كان لأدبائنا العرب القدامى من قدرة فائقة على التأليف الروائي ، والتخيل والإبداع .

مصادر سيرة الملك سيف بن ذي يزن

سيرة الملك سيف بن ذي يزن ـــ مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي ـــ القاهرة .

تاريخ الطبري ـــ الجزء الأول .

تاريخ ابن الأثير ـــ الجزء الأول .

نهاية الأرب في أخبار العرب ـــ المعلم إسكندر أبكاريوس ـــ مطبعة الفعلة مرسيلية عام ١٨٥٣

سيف بن ذي يزن ـــ فاروق خورشيد ـــ دار الكتاب للطباعة والنشر ـــ القاهرة .

سيف بن ذي يزن الملك السوبرمان ـــ عمر أبو النصر ـــ مطابع دار الغد ـــ بيروت .

الموسوعة العربية المبسطة ـــ صفحة ١٠٤٩

ظهر الإسلام الجزء الثاني ـــ الدكتور أحمد أمين

أضواء على السير الشعبية ـــ فاروق خورشيد ـــ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـــ القاهرة .

المحتوى

صدر عن دار الشادي

رقم الاصدار	عنوان الكتاب	المؤلف	المترجم
١	باسم الرب ـــ تحقيق حول مقتل البابا جون بول الأول	دافيد يالوب	موسى الزعبي
٢	حرب اخلاق وفكر استراتيجي في العصر النووي الحراري	رفائيل دراي ، كاأوهوي ثوان	موسى الزعبي
٣	العالم الثالث ـــ حقائق وتناقضات	موسى الزعبي	
٤	المجد للأرض ـــ قصائد للانتفاضة	محمد سمير جعارة	
٥	فارس الأمل ـــ قصائد للانتفاضة	محمد سمير جعارة	
٦	تشامبرلين ـــ الأعراض والعلاقات في الطب السريري	كولين اوغليف ـــ كريستوفر إيفانز	د. مازن طلبات
٧	القرية والمدينة في مثال سورية	د. ساطع محلي	
٨	الصراع على العالم	جان ألنشتاين	موسى الزعبي
٩	البداية والنهاية ـــ نشوء القوى العظمى وانحطاطها	موسى الزعبي	
١٠	مزامير لقرص الرماد	محمد سمير جعارة	
١١	الوجيز في الأدوية والدليل الدوائي	د. مازن طلبات	
١٢	دور الغذاء في الوقاية من الأمراض	دينيس بيركيت	د. ملاك السباعي
١٣	الامتحان في مبادئ الطب الباطني	د. هشام العابد	

نظرة في ادبنا الشعبي : الف ليلة وليلة وسيرة الملك سيف بن ذي
يزن ، الفة الادلبي . ـــ ط٢ . ـــ دمشق : دار الشادي ، ١٩٩٢ . ـــ
١٥٤ ص . ؛ ٢٤ سم .

١ ـــ ١٣٩٨,٢ ا د ل ن ٢ ـــ العنوان ٣ ـــ الادلبي .
مكتبة الأسد

ع ـــ ٨٤٨ / ٧ / ١٩٩٢ الاصدار الرابع عشر

